

**المدارة السياسية وراء المظاهر الحضارية
على عهد عبد الملك بن مروان**

**د. أسامة سيد علي
كلية الآداب – جامعة قناة السويس**

المدارة السياسية وراء المظاهر الحضارية

على عهد عبد الملك بن مروان

د. أسامة سيد علي

كلية الآداب - جامعة قناة السويس

مقدمة

في غرة رمضان من عام ٦٥هـ الموافق ٦٨٥م أصبح عبد الملك بن مروان خليفة للمسلمين وأقبل عليه زعماء بني أمية وأمراء والجند ورؤساء القوم فسلموا عليه بالخلافة بعد ما روعت دمشق في جميع أرجائها بموت الخليفة الذي عقدت له البيعة منذ بضعة أشهر فقط لقد مات "مروان بن الحكم" فجأة دون أن يكمل العام الأول من خلافته، مات شيخ الشيوخ مؤسس دولة آل مروان، وسيد بني أمية. وفي نفس اليوم الذي مات فيه الأب تمت البيعة للابن، وقد كانت هذه البيعة أمراً مقضياً، إذ كان شيخ الشيوخ مروان حكيماً بعيد النظر أعد للأمر عدته قبل وفاته، فما أن استتب له الأمر، حتى دعي رؤساء الجند وأهل الحل العقد، وأخذ عليهم الموائيق والبيعة بولاية العهد لابنيه "عبد الملك" ثم "عبد العزيز" فانعقد الأمر على ذلك قبل وفاة مروان بأقل من شهرين لذلك تمت البيعة "لعبد الملك" دون حدوث نزاع أو خلاف.

الآن وقد انتقل الأمر بكل هدوء من الأب إلى أرشد أولاده، وجد "عبد الملك" نفسه زعيماً وعليه أن يواصل الجهد لإكمال البناء الذي وضع أساسه الخلفاء السابقون ويا لها من مسئولية عظيمة. وجد "عبد الملك" نفسه وقد

ورث كرسي السلطنة الأموية، وقد أخذت تجول في ذهنه الذكريات، وتتوارد الأفكار، فهو الآن جالس في نفس المكان الذي جلس فيه قبله الخليفة الكبير "معاوية بن أبي سفيان" مؤسس الدولة ثم ابنه "يزيد" ثم أبوه الشيخ "مروان بن الحكم" ثم يأتي هو نفسه لتتصل السلسلة التي تمتد حتى خليفة المسلمين "عثمان بن عفان" الذي كان بمثابة رأس الأسرة، وهو الذي وضع أساس المجد للدولة الأموية بصفة عامة والمروانية بصفة خاصة، كان ترتيب "عبد الملك بن مروان" بين خلفاء الإسلام التاسع أو العاشر - إن عدنا خلافة الحسن - والخامس بين الخلفاء الأمويين، والثاني في دول آل مروان. فiales من منصب خطير تقلده ولكنه كان جدير به، ويشهد على ذلك الأعداء قبل الأصدقاء، فقد قال عنه "المنصور" الملوك أربعة "معاوية وعبد الملك وهشام وأنا" (١). ومدحه "ابن عبد ربه" في العقد الفريد (٢) قائلاً "إن السواس من بني أمية ثلاثة "معاوية وعبد الملك وهشام" وفي عبارات بنيعه قال المؤرخون عن عبد الملك "اشتهر بحنكته السياسية وحسن إدارته، فقد كان يباشر الأمور بنفسه متيقظاً في سلطانه حاذقاً في رأيه لا يكل الأمور في أعدائه وأهل حربه إلى غيره حتى يباشرها بنفسه يركب الخطر في كثير من أموره فتغره السلامة (٣) وجانبه أخطار وأحداث عصره مجابهة قوى محتمل (٤) وانطلق بالدولة العربية انطلاقاً قوية وضعته في مراتب الملوك المشهورين، والساسة العظام" ويكفي أن نذكر هنا ما خط به قلمه هو نفسه عندما سأله ابنه الوليد عن ماهية السياسة حيث أجاب قائلاً: "هبة الخاصة مع صدق محبتها واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصانع فإن شكرها أقرب للأيدي منها..". ويتضح من هذا الكلام أن السياسة من وجهة نظر عبد الملك هي فن التأثير والقيادة (٥) بتعبير ذلك الزمان.

ومن ناحية أخرى كانت تحركات عبد الملك السياسية تابعة من إطار لم يغفل عنه، هذا الإطار في حد ذاته كان راجعاً إلى مأساة رآها بعين رأسه هزت نفسه من أعماقها، بل زلزلت وجدانه، وكان هو حادث مقتل عثمان، الذي مثل له فاجعة شخصية فقد كان عثمان أباً له وعميداً لأسرته، شهد عبد الملك هذا الحادث الذي وقع في عام ٣٥هـ وكان قد جاوز الحادية عشرة من عمره فكان عنده إذن قوة الإدراك مما يجعله يفهم ما يدور حوله من أمور ويعرف أسبابها وما يترتب عليها، من هذا الحادث استتبط عبد الملك الدرس الذي آمن به ورسخ في ذهنه، وهو أن سبب هذه الفاجعة أو الكارثة التي وقعت بعثمان إنما هو اللين وحده ولا شيء سواه، فلو أن عثمان أخذ هؤلاء الثائرين بالقوة والحرم لقضي على الفتنة في مهدها، ولما تطورت الأمور إلى هذا الحد الذي أدى إلى مصرعه، إذن فالشدّة والحزم هما عماد السياسة عنده، وهما اللذان يحفظان الدولة.

ولذلك فسنرى أن هذا الدرس هو الذي سيكون القاعدة التي سيبني عليها عبد الملك سياسته في المجال العسكري، والدليل على ذلك — ودون الخوض في تفصيلات — يمكن هنا أن نستعيد مقولة وردت على لسان عبد الملك عبر فيها عما يدور في مكنون نفسه بوضوح في هذا الشأن وذلك عندما حاوره رجل من الأنصار يسمى "ثعلبة بن مالك" قائلاً: "ليست سنه أحب إليّ من سنه عمر" كأنه يلح أنها تختلف عن سنه عثمان، وهنا رد عبد الملك "رحم الله عمر" فعثمان أعلم بعمر، وما كان أحد أتبع لعمر من عثمان، وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته إلا باللين. ولو كان غلظ عليهم جانبهم كما غلظ عليهم ابن الخطاب، ما نالوا منه ما نالوا، هكذا آمن عبد الملك بأن سياسة الضعف أو اللين تؤدي إلى الإطاحة بالدولة، أو تعرضها للأخطار، على حين أن سياسة القوة والحزم تحفظ كيانها وتصورون بقائها^(٦) وكان هذا

هو الدرس الذي استخلصه من مقتل عثمان، لقد أصبح عبد الملك "أمير المؤمنين" يتولى رعايتهم وعليه أن ينهض بعبء قيادتهم، ويحرص على صيانة حقوقهم، ويزود الأخطار عن دولتهم، بل عليه أن يرفع من شأن هذه الدولة حتى يصل إلى ذروة المجد التي تبوأها منذ عهد غير بعيد، وما أعظمها من مسئولية، وما أجله من مجد في الدنيا، وأثقله من تبعه بالنسبة للآخرة ثم ها هو "عبد الملك" يجلس في مقر الخلافة في دمشق هذه المدينة الكبيرة ذات التاريخ القديم عاصمة إقليم سوريا في عهد الرومان، ثم أصبحت الآن مدينة إسلامية تكلمت باللسان العربي القويم يشرق عليها النور بالدين والعلم والحضارة، ثم عظم شأنها فصارت عاصمة الدولة الإسلامية كلها.

كل هذه الخواطر وأمثالها كانت تجول في ذهن "عبد الملك" وهي بالطبع تثير في نفسه مشاعر الغبطة والفرح، ولكن في الوقت نفسه كان الفرح مقروناً بمشاعر القلق، والإحساس بالخطر من جراء تلك المصاعب التي تنتظر العهد الجديد، فقد أصبح حال الدولة الإسلامية مختلفاً عما كان عليه من قبل في عهودها السابقة، فبعد ما كانت الدولة في عصر الخلفاء الراشدين كتلة واحدة متضامنة فيما عدا فترة الفتنة أصبحت الآن منقسمة موزعة، كان يسودها الهدوء فأصبحت الآن تسودها الفتن والاضطرابات، كانت جهودها كلها متجهة إلى محاربة العدو في الخارج، فأصبحت الآن مشغولة بالتحارب بين أحزابها في الداخل، كانت قائمة على أسس التضامن والألفة وتأييد الرأي العام، أصبحت الآن لا يقرر مصيرها إلا السيف والمال والسياسة، إذن لابد من التصارع "والملك لم غلب" بالطبع إذا فكر عبد الملك في ذلك، فسيشعر أنه لا يحق له أن يخالط قلبه السرور، لأن ما ورثه عن والده لم يكن خيراً كله بل هو مسئولية وتركه ثقيلة وهم مؤرق، لقد تبين لعبد الملك أن ما آل إليه ليس نعمة خالصة، ولكن أيضاً محنة، ستكلفه الكثير من الجهود

المضنية. والحقيقة أن عبد الملك لم يكن بغافل عن حقائق هذه السياسة التي كانت قائمة لدى الأوساط الإسلامية شرقاً وغرباً فهناك على الجانب الآخر من الدولة خليفة آخر، وهو خصم قوى عنيد له تاريخ مجيد وجهاد شديد، وهو أحد أبطال الإسلام، ومن الطبقة الأولى من التابعين، له صلات قرابة بالنبي عليه السلام، وأبي بكر، والسيدة خديجة، وأبوه حواري رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن كبار الصحابة، وهذا هو "عبد الله بن الزبير"^(٧) الذي أبى البيعة لمعاوية وهو يقول له بالحرف الواحد "اتق الله يا معاوية، فإن هذه الخلافة لقريش خالصة، تتناولها بمآثرها السنية، وأفعالها المرضية، مع شرف الآباء، وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية وأنصف من نفسك، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى خلف حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هما وما هما"^(٨).

وكذلك خرج عبه الله على يزيد بن معاوية وأعلن خلافته بعد موته سنة ٦٤هـ فبايعه أهل مكة والمدينة، وأهل البصرة والكوفة، وأرسل إليه بالبيعة أهل مصر واليمن وخراسان أيضاً، وكاد أن يتم له الأمر كله لولا أن ظهر مروان وبايعه أهل الشام بعد سبعة أشهر، ولم يستطع مروان أن ينتزع من عبد الله غير مصر فقط وذلك قبل وفاته بشيرين.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الزبير كان معه القسم الشرقي كله من الدولة، وهو الجزء الأكبر. أما عبد الملك عندما تولى الخلافة لم يكن في يده غير الشام ومصر فقط، وحتى هاتين لم تكونا قد استقرتا له تماماً فالشام لم تقم له إلا منذ عشرة أشهر فقط، ومصر لم تستقر إلا منذ شهرين. وليس هذا كل شيء، فإذا نظر عبد الملك إلى الجبهة المقابلة له وجد هناك فريق من

الأمة أعلن الثورة على هذه الأوضاع كلها، ولكن ثورته على بني أمية أشد، وهؤلاء هم الخوارج^(٩).

وقد أقام جمع منهم دولة لهم بالأهواز جنوب البصرة، وأقامت جماعة أخرى دولة ثانية في جزيرة العرب في اليمامة والبحرين وحضرموت وفوق هذا وذاك، كان هناك رجال الشيعة^(١٠) وهم يتأهبون وينظمون صفوفهم استعداداً للقيام بثورة أو تكوين دولة، وجل غضبهم منصب على الأمويين بالذات، لأنهم في نظرهم هم الذين اغتصبوا الخلافة من آل البيت، وأساءوا إليهم، وقتلوا أئمتهم هكذا كان "عبد الملك" إذا نظر إلى ما حوله يرى الدولة العربية الإسلامية بهذا الحال منقسمة الأجزاء متباينة الفرق، مختلفة الدول، فهناك دولة ابن الزبير في الحجاز، ودولة الشيعة بالكوفة، أما دولته بني أمية في الشام، فتقف وحدها ويقف ضدها الباقون موحدون في هدف محاربتها والقضاء عليها.

هكذا أيقن عبد الملك أن دولته محصورة في منطقتها محاطة من أعدائها، مهددة في مهدها من كل جانب، وبإليت الأمر يتوقف عند هذا الحد فإلى جانب هذا كله نجد عبد الملك يعاني من علماء المسلمين وفقهائهم أشد من معاناة السيف، فقد حمل عليه البعض حملة قوية واتهموا بإحداث البدع ومخالفة الكتاب والسنة، وتعطيل حدود الله، والبغي في الأرض فساداً والعدوان وارتياب الآثام، وسفك الدماء، وكان على رأس هؤلاء الفقيه الواعظ "سعيد بن المسيب"^(١١) وهو من سادات التابعين فقيهاً وفضلاً وعلماً، وقد امتنع عن مبايعة عبد الملك ومبايعة الوليد وسليمان في حياة أبيهما، وقد عبر عن ذلك الوضع قائلاً... "يريد أن يجعلها هرقلية ألا إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نبي أن نبائع لخليفته، وإنما السنة في هذه الأمة أن

تختار أرضي من نقدر عليه في هذه الأمة فإن ما هنا من هو أولى بها منه، ومن ابنه، عبد الله بن عمر وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب^(١٢).

وكتب سعيد جوابه هذا إلى عبد الملك، ورد عليه الأخير، قائلاً: "إن معاوية بن أبي سفيان ختن رسول الله وكتبه قد بايع لأبنة" فلما قرأ سعيد الكتاب قال: "كذب والله ما معاوية بقدوة في هذا المجال وكفى معاوية ما أحدث في الإسلام، وكفى يزيد وما فعله قتله أهل الحرة، وإباحة المدينة ثمانية أيام"^(١٣). وقد علل سعيد موقفه هذا بما يروى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - (إذا كانت بيعتان في الإسلام، فاقتلوا الأحدث منهما)^(١٤).

بالإضافة إلى ذلك كله كانت هناك دولة الروم لا تزال بالمرصاد تنتهز فرصة الانقسام لتغير على الحدود في الشمال والغرب، وقد ارتدت الجيوش في شمال أفريقيا، بعد أن وصلت إلى شاطئ المحيط، وفقدت بعض الأقاليم، فالأخطار ماثلة إذن في الداخل والخارج. وبشيء من التدبر للخطوات التي خطتها الفرق المتناحرة نجد أن كلاً منها استخدم سلاحاً مشابهاً للآخر، في المجالين العسكري والحضاري، وكلاً المجالين كانا تابعين من أهداف سياسية قوية تتفق مع مصالحهم ومذاهبهم، وسواء كانت هذه الفرق أموية أو زبيرية أو خوارج أو شيعة فقد بادرت جميعها باستخدام أسلحتها للقضاء على الطرف الآخر، أو على أقل تقدير تحجيمه، لنشر مبادئها وتثبيت سلطانها. وكان على الجميع إذا أرادوا أن يضمنوا بقائهم عليهم أن يخوضوا غمرات القتال أحياناً وفي أحيان أخرى يتبعون فن الدعاية فيوظفونها توظيفاً جيداً عن طريق المظاهر الحضارية لتحقيق مآربهم السياسية، فانسجم عندهم فن الدعاية بالمداراة السياسية وراء المظاهر الحضارية انسجاماً واضحاً حتى أصبح جزءاً من نسيجها الجديد.

في ذلك الوقت كانت المداراة السياسية وراء المظاهر الحضارية أسلوباً جديداً مستحدثاً على العالم الإسلامي، وظهرت في أحد أسبابها عندما أصبحت الحياة السياسية في هذا العصر مضطربة كثيرة الفتن، موزعة الدويلات شديدة الصراع بين التيارات المذهبية المتنازعة، ونتيجة لذلك كان لابد من استخدام سلاح آخر مكمل للقوة العسكرية تجسد عن طريق استخدام تلك المظاهر الحضارية فأوقعوها في هوة هذا الصراع فخضعت المظاهر الحضارية للحالة السياسية، حتى غدت هذه المظاهر ميداناً للتنافس، وهنا حدث التناقض بين الحياة السياسية المتردية، والمظاهر الحضارية المتطورة. وتضافرت هذه العوامل فجعلت من المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت مجتمعاً متناقضاً متدهوراً سياسياً ولكنه مزدهراً حضارياً لذلك كان من الضروري عدم الربط بين الحياة السياسية، والمظاهر الحضارية، ففي كثير من الأحيان لا يحدث انسجام بين الوضعين السياسي والحضاري فإننا إن كنا وجدنا حالة الدولة الأموية على ما وصفنا من الاضطراب والانقسام في الحياة السياسية فإن الأمر كان على العكس تماماً بالنسبة للمظاهر الحضارية التي قامت في زمن عبد الملك بن مروان.

والذي يلفت النظر فعلاً إنه إذا كان عبد الملك قد حقق شهرة واسعة في ميدان الحرب في المدينة والعراق وشمال الجزيرة واحتل بذلك مكانة مرموقة، فإنه في الوقت نفسه حظي بسمعة طيبة في المجال الحضاري الذي عمل وكأنه متحدث رسمي باسمه هو الخليفة القائم بالشام، ومن ناحية أخرى أضفت هذه المظاهر الحضارية عليه نوعاً من الهيبة وهالة من الاحترام والتقدير في نظر معاصريه، وفي نفس الوقت زادت هذه المظاهر الحضارية، خاصة عندما كثرت من قلق الخصوم السياسيين وأدت إلى توترهم، وذلك نتيجة للدعاية المستمرة لها.

وإن كان عبد الملك قد اختار أن تكون الخطة أن يبدأ بقيادة جيش يتوجه به إلى خصمه ليخوض معركة حاسمة لأن هذه المعركة حتمية لا ريب فيها ولكن وسط هذه الجهود العسكرية، سلك عبد الملك الطريق الآخر، طريق المظاهر الحضارية، وعلى الرغم من التطورات العسكرية التي هي في النهاية المسئولة عن إحداث النصر، والتي تحققت بنسبة كبيرة لعبد الملك إلا إنه لا يمكن الاستفادة بهذه الانتصارات أو الاكتفاء بها إلا من خلال سياسة دعائية ومظاهر حضارية متفق عليها لتحقيق احتياجات معينة تخدم مصالحه ومصالح دولته خاصة إذا علمنا أن المظهر الحضاري يتميز بالقدرة على التقمص الوجداني الذي يخدع الأفراد والجماعات، فهو يترك أثراً نفسياً إيجابياً على الموالين وأثراً سلبياً بالنسبة للخصوم السياسيين.

وسواء كان المظهر الحضاري دينياً أو اقتصادياً فهو يخدم في النهاية النظام السياسي للدولة، فالمظهر الحضاري أيًا كان، يهدف في المقام الأول إلى تأكيد سلطة الدولة لأنه يعرض صورة مشرفة لها ويتيح للأفراد والجماعات الثقة في حاكمها، وفي الوقت نفسه فهو مرآة تعكس صورة المجتمع المتماسك بالنسبة للخصوم، فتوحي بأن هناك ثمة ثقة بالنفس، فهذه المظاهر بالنسبة لعبد الملك ليست من أجل الفخر أو التبرير، ولا حتى من أجل التسلية، إنما هي وسيلة دعائية على نطاق واسع وتمثل جزءاً هاماً من الكيان السياسي للدولة^(١٦).

في مثل هذه الظروف وغيرها كان لابد على عبد الملك بن مروان أن يستخدم سلاحاً آخر إلى جانب القوة العسكرية، كان له مضاهؤه وتأثيره البعيد، وهو المظاهر الحضارية وقد برع عبد الملك في استخدام هذا السلاح خلال فترة إقامته حاكماً على الدولة الأموية، حتى أصبح علماً عليه فغداً هو بحق أستاذاً في هذا الفن بعد أن وضع له قواعد ومبادئه والتزم بتنفيذها.

لقد كان ضرورياً أن يعلم عبد الملك حقيقة الصراعات الدائرة حوله والمجاورة له، حتى يمكنه التعامل معها من الناحيتين السياسية والعسكرية، لذا كانت المظاهر الحضارية تعتبر الحماية الخلفية ضد أي مفاجآت قد تحدث. ومما لاشك فيه أن التوافق بين العسكرية والدبلوماسية في المظاهر الحضارية كان كفيلاً بإنقاذ عبد الملك من أشد الفترات تأزماً وبها أعاد إحياء مجد الدولة.

وعلى هذا النحو، سارت المظاهر الحضارية جنباً إلى جنب القوة العسكرية في خطين متوازيين يعملان معاً، وقد يسبق أحدهما الآخر أحياناً، لكنهما يمثلان جناحاً السياسة المروانية، وكثيراً بل ودائماً ما عوضت المظاهر الحضارية النقص الذي كان يعترى القوة العسكرية في معظم الأزمات، ومن ثم كانت تلك المظاهر سلاح تقليدي ولكنه محبب إلى الناس، وقد أثبت ذلك السلاح فعاليته في مناسبات عديدة.

ولما كانت دارسنا هذه تتناول المداواة السياسية وراء المظاهر الحضارية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٦-٨٦هـ)، فإن مجالها يختص بدراسة الدلالات التي تعكسها المنشآت الحضارية والمادية، خاصة إذا اعتبرنا أن العمارة يمكن أن تضاف لتكون من الأركان الأساسية لشارات الملك للملك^(١٦) كما أن السكة من أهم شاراته أيضاً وبها ينعقد الملك^(١٧).

وتحاول هذه الدراسة أن تربط بين المظهر الحضاري وظروف إنشائه من خلال مجريات الأحداث التي شهدتها حكم الخليفة عبد الملك بمنظور يكشف عن أهمية المظهر الحضاري كمصدر مهم يلقي الضوء على جوانب مهمة من السياسة الأموية في عهد خليفة من أهم خلفائها، ومن ثم فإن دراستنا للدلالات السياسية والدعائية ليست دراسة للآثار الإسلامية في عهد الخليفة عبد الملك. لأن هذا فرع آخر مستقل بذاته من فروع العلم، إنما

تركيزنا سيكون على الجانب الدعائي السياسي الذي تعكسه هذه الآثار فقط من خلال الأحداث التاريخية. وقد اعتمدت في ذلك على عنصر الربط بين التاريخ والآثار، فهذا البحث ليس بحثاً أثرياً قائماً على المنهج الوصفي للأثر، بل هو بحث تاريخي قائم على المنهج التحليلي للحدث، لأن المنهج الوصفي يهتم بالشكل، أما المنهج التحليلي الذي اتبعناه هنا، فيدخل في المضمون، بمعنى أنه يهتم بالإنسان الذي شيد هذا البنيان والذي ما كان لينتسبه بغير هدف بقصده وعلى هذا فإننا لا ننظر إلى المظاهر الحضارية على أنها مجرد مهرجانات من القباب والمآذن والأرابيسك، ولكنها في الحقيقة تعكس دلالات دعائية سياسية هامة جديرة بالدراسة.

أولاً: الحالة السياسية

لم تكن الدولة الأموية تتألف عندما تولى عبد الملك الخلافة سنة ٦٥هـ إلا من الشام ومصر فقط أما بقية أرض الإسلام، التي كانت تكون دولة كبرى من قبل، فقد كانت موزعة بين طوائف أو أحزاب مختلفة، كل منها يكون دولة أو ما يشبهها فقد كانت هناك دولة ابن الزبير التي أقامتها في الحجاز سنة ٦٤هـ ومركزها مكة والعراق والبصرة والكوفة، يدينون له بالولاء، وإن كان ولاء اسمياً لم يتخذ جذوراً عميقة، وكانت خراسان تعترف له بالولاء أيضاً ولكنها كانت شبه مستقلة تحت حكم "عبد الله بن خازم السلمي" وتكمن خطورة دولة الزبير بالنسبة لعبد الملك هنا في اتساعها شرقاً وغرباً ومحاصرتها له شمالاً وجنوباً كما أن عبد الملك بدأ عهده والحرب دائرة بينه وبين ابن الزبير، فهي بحق أخطر منافس للدولة الأموية في الشام^(١٤).

أما في الخليج العربي فقد بات عبد الملك مهدداً أيضاً من دولة أخرى ذات بأس شديد للخوارج الذين أقاموا لهم دولة في الأهواز إقليم من فارس إلى الجنوب من البصرة^(١٥). وفي شرق جزيرة العرب تكونت دولة ثانية لهم

على مذهب آخر وشملت اليمامة والبحرين وعمان وحضرموت وحتى اليمن، ثم كانت هناك دولة الشيعة في العراق، وهي لم تكن دولة بكامل الصورة ولكنها كانت قوية منظمة كبيرة يخشى بأسها في الكوفة ولها فروع في البصرة والمدائن وغيرها، وحتى تكتمل الصورة السياسية نضيف هنا دولة صغيرة ولكن كان لها شأن عظيم وجدت في شمال الفرات "لزفر بن الحارث الكلابي" وإن كانت هذه الدولة لا تتعدى مدينة حصينة ذات قلاع وأبراج إلا أن خطورتها تكمن في موقعها الاستراتيجي على حدود الجزيرة فطلت شوكة في جنب دولة الشام وعقبة لا يستهان بها في طريق جيوش الشام إلى العراق خاصة إذا علمنا أنها كانت تدين بالولاء لابن الزبير أيضاً^(٢٠). كان هذا هو الوضع السياسي لتوزيع القوى داخل الدولة العربية الإسلامية عندما تولى عبد الملك الخلافة، وقد وقع الرجل في حيرة من أمره، من أي جهة يمكن أن ينبعث الخطر أو من أي أفق كانت ستهب العاصفة على هذه الدولة التي تكونت حديثاً في الشام؟!

المنطق العسكري يتوقع أن يجيء الخطر من ناحية دولة آل الزبير في الحجاز أو في العراق، لأنها كانت الدولة الأكبر، والأوسع حدوداً والأكثر عدداً أو من الخوارج لو أمكن أن يوحدوا جهودهم مع الزبير، ولكن الخطر لم يأت من قبل هاته إنما هبت العاصفة الشديدة التي هزت الدولة في أول عهدها من قبل الشيعة الذين لم يكونوا دولة بعد في مركزهم بالعراق، ولعل هذا يكون وضعاً طبيعياً إذا أخذنا في الاعتبار أن الشيعة كانت أكثر الجماعات حماساً وكانوا أشد شعوراً بالمرارة بل بالحنق على دولة بني أمية، إذ كانت عدوهم الأول، وهي التي كان لها معهم تاريخ طويل منذ الخلاف بين علي ومعاوية، ثم ارتكبت تلك الجريمة التي لا تغفر، وهي قتل "الحسين بن علي بن أبي طالب"^(٢١) ويظهر الاتجاه الشيعي من هذه الأحداث كلها

ويبدو واضحاً من خلال ثورة "المختار بن أبي عبيد الثقفي" الذي قدم الكوفة سنة ٦٤هـ وسأل عن أحوال العراق فقيل له "هم غنم ضل راعيها" فقال المختار "أنا الذي أحسن رعايتها وأبلغ نهايتها"^(٢٢). وهنا خطب الناس قائلاً "إن المهدي، محمد بن علي، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً وأمرني بقتال الملحدين، والطلب بدماء أهل بيته والدفاع عن الضعفاء" وفي ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٦هـ أعلن المختار ثورته بالكوفة ضد عبد الملك بن مروان، وبذلك أقيمت دولة جديدة للشيعة في الكوفة أضيفت إلى الدول الأخرى المتنازعة في العالم الإسلامي^(٢٣). وبعد أن استولى المختار على معظم العراق لم يكن أمامه سوى الشام ليهاجم عبد الملك في عقر داره ولكن عبد الملك بادره بإرسال جيش إليه، بقيادة ابن زياد الذي وصل إلى الموصل واحتلها، ولكن انتهت المعركة بهزيمة جيش مروان ومقتل ابن زياد قاتل الحسين والغريب أن يحدث هذا في نفس اليوم، عاشوراء من المحرم سنة ٦٧هـ^(٢٤).

وكانت هزيمة معركة "الخازر" بالنسبة لعبد الملك تمثل كارثة لقد تبدد جيش الشام ومزق شذر ومزق، وقتل كثير من كبار قادته، ومنذ ذلك الحين وعلم عبد الملك أنه من الآن لا يستطيع أن يقترب من العراق ولو إلى حين. وفعلًا تأخر فتح العراق خمس سنوات كاملة، أما عبد الملك فهو من الشخصيات التي لا تزعزعها الشدائد وفي قرارة نفسه فقد حمد نتيجة المعركة التي قتل فيها ابن زياد قاتل الحسين لأنه ليس له علاقة بمقتل سيد الشهداء، فقد كانت نتيجة المعركة نقمة ولكنها بالنسبة لعبد الملك كانت تنطوي على نعمة، إذ أنه كان من صالحه وخيراً له أن يتخلص من ابن زياد، ذلك الرجل المكروء، من تاريخه البغيض.

من هنا نستطيع أن نقول إن عبد الملك ودولته بدأ عهدًا جديدًا بعد نهاية هذا الرجل، ولا بد أن الناس بدءوا ينظرون إليه وإلى دولته نظرة جديدة خالية من شعور الضغن، فقد كان ابن زياد يغلف شخصية عبد الملك بالسوء، فحيث زال هذا الظل الأسود أخذت صورة عبد الملك تبدو كصورة الرجل الرشيد، الحاكم القدير، العابد البريء من أوشاب العهد السابق.

وبذكاء شديد بدأ عبد الملك يفكر كيف يستغل هذا الحادث لبيع الأمل من جديد في سبيل تحقيق وحدة دولته ومن هنا غيّر عبد الملك وجهته ناحية الحجاز ليقوم بمهاجمة ابن الزبير في المدينة ولكنه مئى بهزيمة ثانية في مطلع خلافته، وهنا شعر هذا الرجل بحزن شديد فقط كانت هذه الهزيمة حرباً بها أن تلقى في نفس عبد الملك شعوراً باليأس، ولكن عبد الملك كان كبير الثقة في نفسه، ثابتاً لا ترعزعه الشدائد، ولعل عبد الملك علم في حينه أن الحجاز مثل العراق لا يمكن الاقتراب منها لوقت ما، والأحوال كما هي إذن لا مناص من أن يكتفي عبد الملك بالدفاع عن نفسه، وعن مملكته التي تحت حكمه، والأمر مستقر له فيها، وهي الشام ومصر وما يتبعها من أفريقية، فلم يكن أمامه سوى الصبر والاعتماد على الوقت لتمهيد الطريق وإزالة العراقيل وتهيئة الوسائل، كان عبد الملك يعلم تماماً أن لكل من الفرق المتناحرة هدفه ومبتغاه فلماذا لا يتركهم يقاتلون بعضهم بعضاً، ولماذا لا يضعف بعضهم بعضاً، حتى لا يكون الغالب منهم بأحسن حالاً من المهزوم، فقد هداه تفكيره لهذا، فكان حتماً أن ينشب الصراع بين دولة آل الزبير والمختار، وحدث هذا بالفعل سنة ٦٧هـ حيث دارت الحرب بين الحجاز والعراق^(٢٥). وانتهت هذه الحرب بمقتل المختار.

ومن ناحية أخرى كانت الحرب دائرة بين الزبير والخوارج، وهم من أشد الناس عنفاً وأكثرهم تطرفاً أعلنوا ثورتهم على الجميع ولكنهم ظلوا شوكة

حادثة وجرحاً دامياً في جنب عبد الله بن الزبير ودولته في الحجاز، فقد بقوا يستنزفون منه الجهود والأموال ويكبونه الخسائر في الرجال فكانوا السبب الأساسي والرئيسي في إضعاف دولة آل الزبير خاصة عندما أقاموا لهم دولة في نجده في قلب جزيرة العرب^(٢٦).

وعلى الرغم من أن هذه الأحداث كانت في صالح عبد الملك إلا أنها كانت تزعجه إلى حد الفزع فإلى متى يظل هذا النزاع داخل الدولة العربية الإسلامية؟ وهل يمكن أن تترك الأمور هكذا؟ فلم يكن عبد الملك ولا الزبير يعتقد أو يتصور أن تبقى الدولة مجزأة منقسمة بين شخصين أو أكثر، وكل منهما قد بايعه قوم، ويدعى أنه هو اللاح بالخلافة.

في ذلك الوقت كان عبد الملك يرى خصومه يتقاتلون وينتظر نتيجة المعارك الدائرة فهذه المعارك سيكون من شأنها إضعاف الأطراف المتشابكة، في ذلك الوقت يكون الهجوم مضمون النجاح، ويكون في الوقت نفسه قد تمكن من تجديد قواه وتدعيم قواعد دولته، كان من نتائج هذه المعارك أن نُحررت فعلاً إحدى القوى المتنازعة واختفت من الميدان كقوة إيجابية فعالة ألا وهي قوة لشيعه التي قادها المختار، وحقق بها بعض الانتصارات الرائعة وكاد بها أن يؤسس دولة دائمة^(٢٧). الآن لم يعد لهذه القوة وجود ظاهر. وتحولت الدعوة إلى حركة سرية، إذن انحلت عقدة كبيرة من الموقف وأصبحت المعركة مباشرة بين عبد الملك والزبير، ولكن دولة ابن الزبير كان بجنبها جرح دام يشغلها ويستنزف قوتها وهو حرب الخوارج وقد استمرت هذه الحرب فأصبحت كالمرض المزمن لا يرجى البرء منه في وقت قريب، من هنا ودون أي تردد، قرر عبد الملك الهجوم، اختار أن يبدأ بالعراق فهاجمها سنة ٧٢هـ وعليها مصعب أخو عبد الله بن الزبير^(٢٨).

والحقيقة أن مهاجمة العراق والاستيلاء عليها كان ينم عن وعي استراتيجي وذكاء شديد لعبد الملك، فقد كانت الحملة على العراق بمثابة أول مسمار دق في نعش دولة الزبير بالحجاز، فالعراق هو رأس الفأس القاطع الذي يحمي الحجاز من جهة اليمين، وكان ابن الزبير يستمد منه المدد لصد غارات الشام، كذلك لم يكن عبد الملك ليستطيع مهاجمة الحجاز جنوباً وظهره مكشوف من ناحية العراق شمالاً.

الآن وقد انكسر الجناح الأيمن وضاع وذهبت حمايته وأمن عبد الملك شره أصبح الحجاز محصوراً وهذا القطر قليل الموارد يمكن أن يسلم حتى بالحصار من غير حرب، فقد صارت دولة الزبير في الحجاز تنتظر أيامها المعدودة بعد أن انضمت العراق إلى الشام ومصر وعلى الرغم من ذلك، فقد صمد الزبير أمام الحصار الذي فرضه عليه الحجاج طويلاً^(٢٩) وظل الحجاج كاظماً غيظه مدة سبعة أشهر في مهمة لم تكن تأخذ في يده شهراً أو أقل لإنهائها، وأمام هذا لم يكن أمام الحجاج إلا استخدام المنجنيق لضرب مكة ومع مرور الوقت كان لابد أن يحدث الحصار أثره فقد نضبت المؤن وأصاب أهل مكة مجاعة شديدة أجهدتهم مع القتال حتى بلغ الجهد بالناس غايته فرأوا أكثرهم أن يخرجوا إلى الحجاج ويقبلوا الأمان، فأخذوا يتخلون عن عبد الله حتى بلغ من خرجوا من عنده عشرة آلاف. أما عبد الله بن الزبير فلم يأبى إلا الجنة، فقد ظل يقاتل قتال الأبطال حتى اثخنته الجراحات فقتل يوم الثلاثاء لسبع عشرة مضت من جمادى الأولى سنة ٧٣هـ وعلى الأثر دخل الحجاج مكة واستولى عليها فباع أهلها عبد الملك بن مروان في عام الجماعة التالي^(٣٠).

كان عبد الملك يحلم باليوم الذي تبذل فيه الجيود لإبراء الدولة من هذا التصدع، كان يحلم بإزالة هذا الانقسام لتجتمع كلمة الأمة مرة ثانية وتتضم

تحت لواء خليفة واحد، وكان يرجوا أن يكون هو، ولما لا وخصومه يتساقطون واحداً تلو الآخر، فقد علم عبد الملك تماماً أنه لم تكن هناك العاطفة القوية التي تربط بين الشيعة وأحد زعمائها، كما لم يكن هناك الإيمان المشترك لعقيدة ثورية بين الخوارج وقادتهم، ولقد أخذت الذكريات تعود للخواطر، وعبد الملك يرى في نفسه الشخصية التي تستحق الاحترام لتنهض بتحقيق هذا الحلم الصعب، لقد مات ابن زياد قاتل الحسين ومع دفنه دُفن ماضٍ بغيض كان دائماً ما يُلقى بظلال الريب على عبد الملك ودولته، ويشير في نفوس الناس الكراهية له والنفور منه، أما الآن فقد انقطعت صلة عبد الملك بهذا الماضي البغيض ومن ناحية أخرى ذاق الناس من خصومه ألواناً من الإساءة، وقاسوا من عيوب وأخطاء المتغلبين عليهم، وسئموا من كثرة الصراع والنزاع، وبدءوا يبحثون عن الاستقرار، هنا بدا لهم عبد الملك أفضل من غيره بكثير، بل إن الاستقرار والنظام في حكمه المتجلي في دولته بالشام ومصر يدعو للاعتراف له عند المقارنة بغيره^(٣١).

جالت هذه الخواطر جميعها في ذهن عبد الملك وهو يسأل نفسه لماذا تكون الغلبة دائماً للسلاح؟ فيفقد جيشاً يتوجه به إلى خصمه ليخوض موقعة حاسمة فحسب، لماذا يجعل الأمر للسيف وحده؟ ولماذا يترك الحكم للحرب، وقد دلت التجارب أن بعض الجيوش التي تكون كثيرة العدد حسنة العدد قد تُهزم على أيدي فئات أقل عدداً وعدة فينبغي إذن أن يعتمد على سلاح آخر لا بد منه، سلاح قائم على الدعاية السياسية والمظاهر الحضارية، وقد تكسب الدعاية السياسية ما لا تستطيع الحروب أن تناله وهي كثيراً ما توفر الجهد، وتجعل أمر الحرب إذا وقعت هيناً وأقل كلفة في التضحية بما يبذل من دماء وما يتعرض له من أخطار.

كان عبد الملك في ذلك الوقت قد هداه تفكيره وحسن رأيه إلى إعداد سلسلة من المشاريع الحضارية حتى لا يكون هناك أمل للمعارضين في الحصول على مكان يمكنهم من خلاله أن يبتثون أفكارهم، فكانت الإدارة السياسية وراء المظاهر الحضارية على عهد عبد الملك هي اتجاه الدولة نحو تدعيم سلطتها - إبراز سيادتها في محاولة لتطوير النظام المدني الذي يساعده على فرض سيادته - ومن هنا نستطيع أن نقول إن الهدف من الإدارة السياسية وراء هذه المظاهر الحضارية على عهد عبد الملك كان يركز على تأهيل العامة لقبول سلطته وإطاعة أوامره مع وجود اتجاهات سياسية أخرى رأت أحييتها في الخلافة، فاستمر الصراع السياسي مختفياً وراء تلك المظاهر الحضارية التي سنتكلم عنها الآن.

ثانياً: المظاهر الحضارية

١- قبة الصخرة والإدارة السياسية

كانت قبة الصخرة التي قام ببنائها عبد الملك بن مروان من أهم المظاهر الحضارية التي أثارت جدلاً واسع النطاق بين أوساط المؤرخين، ومن ناحية أخرى فقد تسببت روايات المصادر العربية التي تحدثت عن سبب بنائها في كثير من النقاش واختلاف الآراء، لذلك كان يجب علينا أن نناقش أولاً هذه الروايات في ضوء الأحداث السياسية قبل الحديث عنها كأسلوب دعائي أو كمظهر حضاري ونبدأ هنا باستعراض رواية مؤرخنا اليعقوبي^(٣٢). وهي أقدم رواية تحدثت عن سبب إنشاء قبة الصخرة، فقد قال: "إن عبد الملك منع أهل الشام من الحج وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا، فقال لهم: هذا "ابن شهاب الزهري" يحدثكم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: لا تشد الرحال

إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدميه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة، فبني على الصخرة قبة، وعلق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة وأقام بذلك أيام بني أمية".

وعلى درب اليعقوبي سار المؤرخون المعاصرون واللاحقون وجلهم ينقل عن سلفهم هذا، ويكاد بعضهم يردد عبارات اليعقوبي بنصها، من هؤلاء المؤرخين القدامى "سعيد بن البطريق"^(٣٣). "وابن الجوزي" "وابن كثير"^(٣٤). وقد حظيت هذه الرواية بالقبول والتأييد من جانب المحدثين^(٣٥)، وبعض الدارسين اللاحقين الذين تعرضوا لدراسية أسباب بناء قبة الصخرة ومنهم "جولزير"^(٣٦) الذي كان أشد هؤلاء جميعاً قسوة على عبد الملك إلى درجة تُعيد إلى الأذهان رواية اليعقوبي، كما لو أن "جولزير" كان يقرأ منها ويخط بيمينه ولم يسلم عبد الملك كذلك من ملاحقة "ولها وزن"^(٣٧)، وهو من المؤرخين المحدثين الذي قال: "إن عبد الملك بن مروان كان يحاول أن يستبدل مكة بالقدس ولكنه ترك هذه المحاولة بعد تغلبه على منافسه" ولم يسلم عبد الملك كذلك من ملاحقة مؤرخ محدث آخر هو "فيليب حتى" الذي أشار إلى أن بناء قبة الصخرة كان هدفه تغيير الحج من مكة إلى القدس^(٣٨) جرياً على ما قالت به سطور المصادر التاريخية المعاصرة.

وحتى نتضح الحقائق علينا الآن أن نبين مدى صدق ما قالت به تلك المصادر أو بتعبير أدق ما أذاعه اليعقوبي وتابعه فيه دون مناقشة من جاءوا بعده خاصة وإن هذه الاتهامات تتدرج كلها تحت الخروج عن الملة وإسقاط ركن من أركان الدين، ومع الإقرار الكامل والاعتراف بأهمية اليعقوبي مؤرخاً إلا أن روايته غير موثوق بها بسبب ميوله الشيعية ومن ثم فإننا نجد

غالبًا منحاذاً للعلويين معارضاً للأمويين، وفي تاريخه المشهور^(٣٩) حدثنا كثيراً عن جور عمال بني أمية في جمع الخراج، وعن ظلم عثمان وانحيازهم لأهله وأقربائه، ومن هنا تحامل اليعقوبي على بعض خلفاء بني أمية تحاملاً لا نعتقد بصحته، ومن بين هؤلاء الخلفاء كان عبد الملك بن مروان، وهو من التابعين وغير محتمل أن يقدم مثله على تغيير شعائر الدين بتحويل الحج عن الكعبة^(٤٠). كما أن ما يدعيه اليعقوبي بأن عبد الملك حاول أن يجعل الحج إلى القدس بدلاً من مكة لا يؤيده أي مؤرخ مسلم آخر من القرن ٣هـ/٩م، هذا بالإضافة إلى أن الأحاديث التي تتعلق بالقدس أسبق من فترة عبد الملك، وكان يعرفها مواطنو فلسطين وسوريا^(٤١) بمعنى أنهم لم يكونوا بحاجة لأن يذكرهم أحد بهذه الأحاديث كما أن "ابن شهاب" الذي ذكر في رواية اليعقوبي كان وقت التفكير في إنشاء قبة الصخرة صغير السن ولم يكن قد اشتهر بعد^(٤٢).

وعند تفنيد رواية اليعقوبي نجد تعارضاً شديداً بين فحواها والمنطق وفق المنظور الديني الإسلامي الذي لا يقر أن يقوم خليفة المسلمين بتغيير ركن من أركان الدين، وهو الحج بتحويله من مكة إلى القدس، كما أن رواية اليعقوبي تشير إلى أن عبد الملك منع أهل الشام من الحج إلى مكة لئلا يميلوا إلى ابن الزبير وأقام لهم القبة على الصخرة يشغلهم بها، والثابت تاريخياً أن الحج لم ينقطع من بلاد الشام إلى البيت الحرام مع سيطرة ابن الزبير على الحجاز، والدليل على ذلك، ما ذكره الطبري في أحداث سنة ٦٨هـ ما نصه "في هذه السنة وافت عرافات أربعة ألوية، ابن الحنفية في أصحابه في لواء قام عند جبل المشاة، وابن الزبير في لواء فقام مقام الإمام اليوم، ولواء بالقرب من نخدة الحروري، وأخيراً لواء بني أمية عن يسارهما"^(٤٣). وتشير هذه الرواية إلى أن الحجاج من بلاد الشام والتابعين لبني أمية كانوا يزدون

فريضة الحج وفق شعائرها المقدسة في مكة أيام كان ابن الزبير مسيطراً عليها، وفي ذلك ما يدحض الاعتقاد بأن قبة الصخرة أنشئت لتحويل الحج^(٤٤). كما أن وجود أربعة ألوية في هذه السنة له دلالاته السياسية عند ابن الزبير، ويؤكد حرصه على كسب ولاء المسلمين والسماح لخصومه بأداء فريضة الحج فعدم الاعتراض هنا كان من منطلق سياسي، وهو منطلق لا يُعتقد أنه غاب عن الخليفة عبد الملك الذي كان هو الآخر في أشد الحرص على التمسك بفرائض الدين وتعاليمه^(٤٥).

وبنظرة فاحصة إلى المصادر التاريخية الأقدم والتي تناولت تفصيل أحداث الصراع بين عبد الملك وابن الزبير لم تُشر ولو حتى تلميحاً إلى أن عبد الملك كان له نية في جعل الحج إلى بيت المقدس^(٤٦) كما أن مؤرخنا المقدسي^(٤٧) الذي ولد في القدس والذي يعتبر من الجغرافيين المسلمين القدامى عندما تحدث عن قبة الصخرة لم يتناول من قريب أو بعيد ما ذكره اليعقوبي وابن البطريق في هذا الشأن.

أما القلقشندي^(٤٨) فقد ربط بين رواية اليعقوبي وبين ظاهرة "التعريف" ربطاً يوحى إلى حد ما بتصديق رواية اليعقوبي عندما قال: "إنه لما ولى الخلافة عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج من حيث إن ابن الزبير كان يأخذ البيعة لنفسه على الناس في الموسم، فضج الناس من منع الحج فبنى عبد الملك قبة الصخرة ببيت المقدس وكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها" أما ظاهرة التعريف فالمقصود بها هو الوقوف عند المساجد الجامعة بمدن الأمصار في يوم عرفة من بعد صلاة العصر إلى المغرب، واشتق المسمى من يوم عرفة وهو التاسع من ذي الحجة^(٤٩).

وظهرت هذه الظاهرة أول ما ظهرت في العصر الأموي^(٥٠). عندما انتشر المسلمون في الأرض أصبح من الصعب عليهم الحضور إلى الحج

السنوي الذي تعودوا عليه كل عام في العهد الإسلامي المبكر، ونتيجة لذلك وعوضاً عن أداء أهم مناسكه وهو الوقوف بعرفة توجه معظم المسلمون في بعض عواصم الأقاليم إلى المساجد الجامعة للصلاة والتقرب والدعاء في هذا اليوم، ولعل هذا ما دعا "ناصر خسرو"^(٥١) إلى القول إن المسلمين الذين لم يكونوا قادرين على الحج كانوا يأتون إلى القدس ويعملون "الوقوف" وأحياناً وصل عددهم إلى عشرين ألفاً اجتمعوا في القدس لهذا الغرض وليس للطواف كما يحدث في مكة، وفي هذا ما يدحض افتراءات رواية اليعقوبي، وإن كان هذا العدد الذي ذكره ناصر خسرو مبالغ فيه حيث إن سكان القدس جميعهم في ذلك الوقت لم يتعدى العشرين ألفاً ويتضح من هذا العرض التاريخي أن اليعقوبي وظف المظهر الحضاري الذي أقامه عبد الملك توظيفاً مغرضاً وذلك عندما نسب إلى عبد الملك قوله "مسجد بيت المقدس يقوم لكم مقام المسجد الحرام" ثم تبع هذا الإدعاء بالإشارة إلى أهمية الصخرة حيث يروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضع قدميه عليها لما صعد إلى السماء، ثم حبك اليعقوبي قصته فذكر أن عبد الملك علّق على الصخرة ستور الديباج وأقام عليها لها سدنة وأخذ الناس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة.

وفي ضوء ما ورد في المصادر يمكن أن نفند هذه الإدعاءات ونبيّن زيفها، فتكاد تجمع هذه المصادر على أن عبد الملك بن مروان كان خلال حياته الأولى متديناً وأنه أظهر ولعاً شديداً في الدراسات الدينية وأنه اعتاد الجلوس مع الفقهاء ورجال الدين الذين علموه الحديث، وقيل إنه قبل تولى الخلافة كان منهمكاً في الصلاة وتلاوة القرآن في مسجد المدينة حتى إنه لُقب بحمامة المسجد^(٥٢). وبعد ذلك ترى هل يمكن أن نقول على رجل هذا شأنه إنه أراد أن يُحوّل الحج عن مواضعه فيوصم بالكفر^(٥٣).

ومن ناحية أخرى، فإن عبد الملك كان في أشد الحاجة إلى من يناصره ضد خصومه ولاسيما عبد الله بن الزبير أقوى المناهضين له ولذلك كان عليه أن يفعل كل ما يمكنه من ذلك إلا أن يُعرض نفسه للخطر ولجهد المسلمين ضده^(٤٤). كما أن الكتابات التي وجدت على قبة الصخرة نصت على مدلولات تؤكد على عقيدة التوحيد من خلال نصوص قرآنية بعيدة إطلاقاً عن أي إشارة إلى الحج أو الطواف وقد حدث تعديل بالنص التأسيسي لقبة الصخرة حيث أحل الخليفة المأمون اسمه مكان اسم الخليفة عبد الملك وهذا الإحلال في حد ذاته يثبت أن قبة الصخرة لم تُبن ليحج إليها الناس بدلاً من الكعبة لأن لو كان صحيحاً ما زغب المأمون في أن يضع اسمه مكان اسم عبد الملك ولسعى هو وغيره من الخلفاء السابقين له لإزالة هذا الأثر الذي يتعارض وفريضة من فرائض الإسلام، وهو ما لم يحدث بل إن العكس هو الذي حدث فقد تنافس حكام وسلاطين المسلمين في تعمير قبة الصخرة وإصلاحها وترميمها كلما احتاجت إلى ذلك^(٤٥).

ومن ناحية أخرى إذا نظرنا إلى تصميم قبة الصخرة بهذا الشكل نجده غير ملائم لطواف الحُجَّاج كما يطوفون حول الكعبة فالبناء محصور في جدران غليظة وأبوابه الأربعة من جهة ضيقه لا تسمح بدخول أفواج من الناس وخروجهم في يسر وحرية من الحركة وهم على هيئة الطواف^(٤٦).

مما سبق يتضح أن رواية اليعقوبي وابن البطريق من بعده تبقى هي الأخرى شاهداً على توظيف المظهر الحضاري توظيفاً دعائياً مغرضاً عن طريق الكتابة باعتبارها من أهم وسائل الاتصال في العصور الوسطى حيث إنها وسيلة نقل المعرفة عبر الأجيال، وإن كانت مغلوطة. الآن نبدأ في الحديث عن الأسباب الحقيقية وراء بناء قبة الصخرة كمظهر حضاري على عهد عبد الملك، في البداية يجب أن نضع في الاعتبار أن للقدس أهمية

خاصة بالنسبة للأمويين فقد تمت بهابيعة الجماعة لمعاوية مؤسس الدولة الأموية^(٥٧). وعندما تولى عبد الملك الخلافة اهتم بها اهتمامًا خاصًا وربما يرجع ذلك إلى صلته الوثيقة بها قبل توليه الخلافة، ففي خلافة ابن مروان بن الحكم ٦٤-٦٥هـ/ ٦٨٣-٦٨٤م عين عبد الملك واليًا على فلسطين^(٥٨). لكنه بقى في دمشق وأرسل نائبًا هو "روح بن بناع الجذامي" وعندما أصبح عبد الملك خليفة تلقى البيعة بالقدس أيضًا كما فعل معاوية من قبل^(٥٩).

والآن يمكن الكشف عن المداراة السياسية وراء هذا المظهر الحضاري من خلال الربط بين الأحداث التاريخية في ضوء المناخ السياسي والديني الذي كان يخيم على هذا العصر. ونرجع بالأحداث إلى فترة تولى يزيد بن معاوية للخلافة وما أعقبه من خلافات واضطرابات لاسيما في بلاد الحجاز، وما نتج عن ذلك من أحداث كان أهمها معركة الحرة وما بها من مآسي تعرض لها أهل المدينة المنورة وأهمها محاصرة مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق وتعرضها للحريق والتهدم^(٦٠).

في هذه الأثناء تطورت الأحداث السياسية في بلاد الحجاز عندما بوع لابن الزبير بالخلافة، وهنا أول شيء قام به ابن الزبير هو استخدام المداراة السياسية التي نتحدث عنها فقد جدد عمارة الكعبة فجعل لها بابين وذلك وفق حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم^(٦١). كما اتخذ عبد الله بن الزبير لنفسه لقب "العائز" ببيت الله أثناء محاصرة جند يزيد له وحمله الدرة تشبهاً بالخليفة عمر^(٦٢). ومنذ ذلك الحين ولقب بأمرير المؤمنين، في ذلك الوقت عايش عبد الملك رد الفعل لدى عامة المسلمين إزاء هذه الأحداث وما سببته من هياج للرأي العام الإسلامي الذي طلب بمبايعة الزبير. وعلى الرغم من أن عبد الملك أعترض بشدة على محاصرة جند يزيد لمكة وضرب الكعبة بالمنجنيق^(٦٣). إلا أنه أدرك القصد الدعائي السياسي لابن الزبير من الاحتفاء

بالكعبة وتلقيب نفسه بلقب العائز ببيت الله ثم أثر فعله الحسن في إعادة بناء الكعبة وفق حديث رسول الله، وحمله الدرة تشبهاً بالخليفة عمر وتذكيراً بعدله، وفي إطار هذه المداراة السياسية التي جرت بين عبد الملك وابن الزبير لم يكن أمام عبد الملك إلا أن يقوم ببناء قبة الصخرة كرمز دعائي سياسي لكسب تعاطف شعور المسلمين لاسيما وأن القدس هي الأخرى كنت قبلة المسلمين الأولى، وبها المسجد الأقصى الذي يشير إلى فضل زيارته حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم^(٦٤).

ومن هنا نستطيع أن نقول إن عبد الملك أراد إبراز القدس كمركز ديني وسياسي للدولة الأموية مثل مكة بالنسبة لابن الزبير. وقد فطن إلى ذلك ابن تيمية عندما تحدث عن سبب بناء عبد الملك لقبة الصخرة حيث ربط ذلك بالتنافس السياسي بين عبد الملك وابن الزبير، عندما قال "إن عبد الملك رأى بينائها أن يلفت انتباه المسلمين إلى القدس فعظم عبد الملك شأن الصخرة بما بناه عليها وجعل عليها الكسوة في الشتاء والصيف ليكثر قصد الناس لبيت المقدس فيشتغلوا بذلك عن قصد ابن الزبير، والناس على دين الملوك"^(٦٥).

إذن نحن الآن أمام خصمين استخدم كل واحد منهما سلاحاً مشابهاً للآخر، وهو المظاهر الحضارية لتحقيق أغراضهم السياسية، فعندما أعلن ابن الزبير نفسه خليفة سارع إلى حمل الدرة كشعار للخلافة مشيراً بذلك إلى تأسيسه بالخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما أنه أستغل قدسية مكة والمسجد الحرام وأطلق على نفسه لقب العائز كمركز دعائي يعتمد على العاطفة الدينية في اجتذاب الأنصار، ولا يقل قوة عن الرمز الذي استخدمته الحركة الهاشمية وهو الدعوة للرضا من آل محمد^(٦٦).

كما أنه أصر على إعادة بناء الكعبة من أساسها بعد أن تعرضت للحرق والتدمير إثر ضرب جند يزيد لها بالمنجنيق وسعى إلى بناها بأثمن المواد

النباتية ليحقق تعاطفًا دينيًا من قبل المسلمين يوازي غضبهم على ما فعل جند يزيد، وعندما تنبّه الخليفة عبد الملك لهذا قام بإنشاء قبة الصخرة لإبراز اهتمام الأمويين بالمقدسات الإسلامية مثلما فعل ابن الزبير، وهو ما يكسب الأمويين تعاطفًا مناظرًا من جانب المسلمين الذين يذكّره هذا العمل بقبليّتهم الأولى، ومسجدهم الأقصى ببيت المقدس، وفي ذات الوقت يحقق هدفًا جانبيًا آخر وهو لفت انتباه المسلمين لزيارة بيت المقدس فيحول ذلك دون قصدهم ابن الزبير.

كانت ضخامة البناء وفخامة الزخرفة في قبة الصخرة تعكس أيضًا دلالات اقتصادية أراد بها عبد الملك أن يؤكد على ثراء الأمويين ورخائهم الذي مكنهم من إنشاء المبنى بهذا الأسلوب وهذه التكاليف، كذلك اختار عبد الملك العناصر الزخرفية في قبة الصخرة بعناية شديدة عندما استخدم العناصر النباتية المكونة من ثمار وورود وأشجار^(٦٧). وكان لهذا الاختيار حكمته والهدف من ورائه هو الالتزام بالأفكار والقيم الدينية التي تكره التصوير الحي وبخاصة في المنشآت الدينية حتى لا يعطي الفرصة لخصومه أن ينالوا منه، ومن ناحية أخرى لكسب تعاطف المسلمين ومشاعرهم نحو الخليفة الجديد باعتباره راعيًا لمقدسات المسلمين التي تخضع لسلطنته مثلما فعل ابن الزبير ولا عجب إذا قلنا إنه حتى النقوش الزخرفية على قبة الصخرة ارتبطت بالأحداث السياسية والأغراض الدعائية التي سادت هذا العصر، فقد نُفذت في إطار يتفق مع العقيدة والروح العربية الإسلامية بما يحقق الغرض الدعائي الذي أُنشئت من أجله، وسط هذه الزخارف النباتية نجد عبد الملك يؤكد على استخدام التاج كعنصر زخرفي مهم بين العناصر الزخرفية الأخرى لقبة الصخرة، واستخدام التاج هنا له دلالة رمزية دعائية أيضًا تشير إلى السلطة السياسية للخليفة الأموي وهي مداراة واضحة دعت إليها الظروف

السياسية في ذلك الوقت، والتي كانت تتمثل في عدم اجتماع المسلمين على خليفة واحد^(٦٨). وإذا ربطنا بين هذه الأحداث وتاريخ الانتهاء من بناء قبة الصخرة وهو سنة ٧٢هـ / ٦٩١-٦٩٢م لأدركنا أن تنفيذ أعمال الزخرفة كان معاصرًا للسنوات التي احتدم فيها الصراع السياسي بين الأمويين والأحزاب السياسية المعارضة كالزبيريين والخوارج وهو ما لزم معه اختيار عناصر زخرفيه محددة وظفت توظيفاً دعائياً يتفق والأهداف السياسية الأموية في هذه الفترة الحرجة ولم يكن عبد الملك ولا الزبير وحدهما هما اللذان استخدمتا المداراة السياسية وراء المظاهر الحضارية، فقد استخدمهما أيضاً "المختار الثقفي" الشيعي وهو من اقوي المعارضين للثنتين^(٦٩).

ويهمنا من أمر هذه المداراة تلك الرموز الدعائية ذات الدلالات السياسية والتي تمثلت في كرسي غطاء بالديباج وكان يصنعه في مقدمة الجيش ويقول لجنده قاتلوا عليه، فهو لكم كالتابوت لبي إسرائيل، وقد ساعد هذا الكرسي على زيادة حماس أصحابه ورفع من معنوياتهم في حروبهم مع أعدائهم من أهل الشام، كما ساعد هذا الرمز الدعائي في الحصول على تأكيد أكثر الشيعة المتطرفين وذلك عندما نسبوا هذا الكرسي إلى علي بن أبي طالب^(٧٠).

ومن هنا نستطيع أن نقول إن المداراة والدعاية السياسية سائرت الأعمال الحربية والعسكرية للأحزاب الدينية المتناحرة أيضاً. وبمراجعة النصوص التاريخية وإعادة قراءتها للكشف عن أصل هذا الرمز الدعائي الذي وظفه "المختار الشيعي" وجد أن أول سادن للكرسي كان "موسى بن أبي موسى الأشعري" ثم أعقبه "حوشب البرسمي" وكلاهما من عرب الجنوب أهل اليمن، أما أولئك الذين كانوا يحفون به فكانوا أيضاً يمينيين من قبائل "شباب ونهد وخارف وشاكر" ويرجع هذا الرمز الدعائي إلى فترة ما قبل الإسلام، فقد جرت العادة بين القبائل اليمنية بحمل علاماتهم القبلية عندما يخرجون للحرب

وذلك لاعتقادهم بأن هذه العلامات، أو الشعارات تجلب لهم النصر، من هذه العلامات كان الكرسي الذي يمثل أهم شعار قبلي يعمل على زيادة حماس المحاربين^(٧١)، ويمنح النصر لأهله، وظل هذا الشعار ينتقل من جيل إلى جيل بين عرب الجنوب، ولما رأى المختار الثقفي أن غالبية جنده من عرب الجنوب أراد توظيف هذا الرمز الدعائي في خدمته^(٧٢).

من هنا جاء اهتمام المختار بشأن الكرسي متزامناً مع اهتمام ابن الزبير بإعادة بناء الكعبة وحرصه على جلب المواد البنائية الجيدة لها من صنعاء، ويدخل في هذا الإطار نفسه اهتمام عبد الملك بقبة الصخرة وغيرها. ومن هنا نستطيع أن نقول أيضاً إن المظاهر الحضارية كانت تعكس النظم السياسية في البلاد التي تمثلها وقد أثبتت التجارب أن المداراة السياسية لا يمكن أن تكون محايدة في عرضها مهما حاولت إخفاء ذلك، فهذه المداراة لا بد أن تخدع الرأي العام في حالة السلم أو الحرب. وإن كنا نرى من المفروض أن يكون المظهر الحضاري متحرراً من سلطة الدولة، ولكن الملاحظ من خلال دراسة تاريخ هذه الفترة في كافة أنحاء المجتمع الإسلامي هو العكس، من حيث درجة التحرر من سلطة الدولة، فمن الواضح من خلال هذا العرض التاريخي أن القوى المتناحرة جميعها نفذت مظاهرها الحضارية تحت ضغط قوى سياسية مهيمنة عليها سيطرة شبه تامة لتحقيق أغراضها ويقوم بها الخليفة أو الحاكم الذي يمارس سلطته المطلقة بما يكفي الحفاظ على مصالح دولته. ومن هنا عكست المداراة بشكل أو بآخر اهتمامات ومصالح البلاد التي تتبعها وقد عبرت بشكل صريح ودون موارد عن الخط السياسي لها.

٢- الكعبة المشرفة والمدارة السياسية

الان ومن خلال بحثنا هذا سوف نبرهن على أن المظاهر الحضارية عملت على أنها كخطط إستراتيجية فنحن ننظر إليها، من وجهة نظرنا، على أنها تبرير استتعت القوى المتصارعة جميعها ليواجهوا بها بعضهم البعض مواجهة شرعية فجميع هذه القوى تبحث عن شرعية ضرب الآخر بالسيف تحت ستار المظاهر الحضارية، لذلك اتخذت هذه القوى المتصارعة المدارة السياسية حقيقة مؤكدة من حقائقها، وأضافت إلى مضامينها الدينية دلالات دعائية وسياسية فأضفت على هذه المضامين الدينية خصائص دعائية فردية ونفعية وصلت في بعض الأحيان إلى حد الأنانية المفرطة وما يلزمها من روح المغامرة والحرب تحت شعار ديني أو سياسي، وهذا ما سنلاحظه عند الحديث عن الكعبة المشرفة وما جرى حولها من حرب وما أصابها من تدمير خلال تلك الفترة.

بدأ استخدام الكعبة المشرفة كرمز دعائي عندما قام "الحصين بن نمير" إلى مكة على رأس جند "يزيد بن معاوية" لقتال ابن الزبير وعندما علم ابن الزبير بذلك جمع أصحابه سنة ٦٣هـ / ٦٨٣م وتحصن بهم في المسجد حول الكعبة، ونصب فيها خيامًا يتظللون بها من الشمس، وفي البداية نرى أنه لم يكن يليق لابن الزبير أن يتخذ من الكعبة مكان تحصين وكان من الأجدر به الخروج على رأس جيش لملاقاة الحصين بن نمير في مكان بعيد حتى يقي الكعبة شر الهجوم، ولكن لم يحدث شيء من ذلك بل والغريب أن يحدث العكس فقد تحصن الزبير بالكعبة وما حولها. وأمام هذا اضطر الحصين إلى نصب المنجنيق على الأخشبين^(٧٣)، وصار يرمي على ابن الزبير وأصحابه فكان من الطبيعي أن تصيب الحجارة الكعبة فوهنت لذلك وتمزقت كسوتها حتى احترقت وهنا وفي إطار الدعاية السياسية التي نتحدث عنها فقد أذاع الأمويون أن ابن الزبير هو المسئول عما أصاب الكعبة من تصدع وحريق.

على حين ألقى ابن الزبير وأنصاره التبعة على عاتق الأمويين، وكذلك اختلف المؤرخون فيمن يقع عليه الإتهام فهناك من المؤرخين من ألقى بالمسئولية على عاتق جند الشام، وفي مقدمتهم المسعودي^(٧٤)، الذي ذكر أن جند الشام هم سبب تهم وحرق الكعبة حيث قال: "فتواردت أحجار المنجنيق والعرادات على البيت، ورمي الأحجار بالنار والنفط ومشتقات الكتان وغير ذلك من المحرقات وانهدمت الكعبة واحترقت البنية" ويتفق مع المسعودي كل من "اليقوبي"^(٧٥)، "وابن طباطبا"^(٧٦)، "وابن عساكر"^(٧٧)، في إلقاء المسئولية على جند الشام.

أما المؤرخون الذين وجهوا الاتهام إلى جند ابن الزبير فمنهم "الطبري"^(٧٨)، الذي قال "إن أصحاب الزبير كانوا يوقدون حول الكعبة نارًا تطاير منها الشرر فاحترقت ثياب الكعبة وخشب البيت" ويؤيد مؤرخنا "البلاذري"^(٧٩)، ذلك أيضًا، وهناك من المؤرخين من وقف موقفًا محايدًا من حرق الكعبة مثل "ابن الأثير"^(٨٠)، الذي ذكر روايتين عن احتراق الكعبة فيقول في إحداها إن بعض الناس ذهبوا إلى أن سبب حريق الكعبة يرجع إلى ما كان من قذف جند الشام لها بالمجانيق، على حين زعم آخرون أن الكعبة قد احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبد الله حول الكعبة، وقد روي "ابن كثير"^(٨١)، ثلاث روايات دون أن يرجح إحداها فقال: "فلما كان يوم السبت ثالث ربيع الأول سنة ٦٤هـ نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها بالنار، فاحترقت جدار البيت، وقيل إنما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة فعلقت النار في بعض أستار الكعبة فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت، وقيل: إنما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة في ليلة ظلماء فظن أهل الشام فرفعت نار على رمح

لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل فعلقت النار على أستارها وأخشابها فاحترقت، واسود الركن، وانصدع في ثلاثة أمكنة منها".

أما "العمرى"^(٨٢). فلم يتهم ابن الزبير، ولا جند الشام، بل قال: "إن سبب حرق الكعبة امرأة أرادت أن تجمر الكعبة، فطارت شرارة من المجرمة في أستارها فاحترقت وبعد أن رفع الحصين حصار مكة عندما بلغه موت يزيد دعا "ابن الزبير" عقلاء الناس واستشارهم في هدم الكعبة فأشار عليه قليل وأبي كثير، وكان أشدهم إباء "عبد الله بن عباس" رضي الله عنهما، حيث قال لابن الزبير: "دعها على ما أقرها عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنني أخشى أن يتأتى بعدك من يهدمها فلا تزال تهدم وتبني فيتهاون الناس بحرقتها، ولكن ارقعها" وكان هذا هو الرأي الصواب ولكن ابن الزبير رفض وقال: "ما يرضى أحد أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت الله"^(٨٣).

ويبدو أن ابن الزبير أراد أن يضفي على نفسه هاله من العظمة في نظر معاصريه في وقت كان مقبل فيه على عصر يمتلئ بالتحديات الكبرى، ومن هنا استقر رأيه على هدم الكعبة وردّها على قواعد الخليل وعملاً بحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعائشة رضي الله عنها^(٨٤) فلما كان يوم السبت النصف من جمادي الآخر أمر الزبير بهدمها. وكان ذلك سنة أربع وستين من الهجرة، ثم زاد في طولها تسعة أزرع فأصبحت أربعة وعشرين ذراعاً^(٨٥). وجعل لها بابين متقابلين، أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه لأصقيين بالأرض^(٨٦).

ولما فرغ ابن الزبير من بناء الكعبة في سابع عشر من رجب سنة خمسة وستين سترها بالديباج الملطخ بالعنبر ثم أدى العمرة احتفالاً بهذه المناسبة العظيمة^(٨٧). لم يكن الزبير فيما فعله يبتغي مرضاة الله والرسول والمسلمين فقط، بل كان إصراره على هدم الكعبة وإعادة بنائها رغم اعتراض معظم من

شاورهم يحقق له أغراضًا دعائية ومدارة سياسية لاسيما بعد تلك الأحداث الأليمة التي نتج عنها قتل عدد كبير من أهل المدينة في موقعة الحرة، وما واكبها من مبايعة الأقاليم المختلفة لابن الزبير^(٨٨) حتى انحسر حكم الأمويين في الشام ومصر، بعد أن استطاع مروان أن يستعيد مصر.

وبمقارنة سريعة بين أسلوب بناء الكعبة على يد ابن الزبير وأسلوب بناء قبة الصخرة على يد عبد الملك يتضح لنا إلى أي مدى وصلت المنافسة الدعائية بينهما والتي انعكست في تنفيذ المنشآت الدينية بالذات، لأن المظاهر الحضارية يجب أن تركز على اتجاهات واهتمامات الناس وقيمهم وعاداتهم، لأن هذا المظهر أو ذلك فهو من الدرجة الأولى يجب أن يخدم الحاكم ويهتم بالرأي العام تحت ستار من الدين، ومن خلال المظاهر الحضارية أيضًا شعر الخصمان المتصارعان بالمساواة بما يتيح لكل فرد فرصة متساوية مع الآخر من الناحية السياسية والدعائية، أما عسكريًا فقد كان موقف عبد الملك أفضل خاصة بعد أن انتهى الحجاج من القضاء على مصعب ابن الزبير في العراق، ولم يبق أمام عبد الملك سوى القضاء على عبد الله بن الزبير في مكة، ولم يكن أمام الخليفة سوى أن يكلف الحجاج بهذه المهمة الصعبة، وهنا لم يشفع لعبد الملك كل ما قام به من مظاهر حضارية، إذ قام الحجاج بحصار مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق مرة ثانية، وهما حادثتان مروعتان استغلها خصوم الخليفة عبد الملك للنيل منه^(٨٩).

ولكن يجب أن نذكر هنا أن الحجاج أقدم على هذا العمل بدافع طموحاته الشخصية، ولم يكن لعبد الملك دخل فيه، والدليل على ذلك أن عبد الملك نفسه اعترض قبل ذلك على ضرب الحصين للكعبة أيام حصارها الأول في عهد الخليفة يزيد بن معاوية فكيف يقدم على هذا العمل الآن. ولعل مما يدعم هذا الرأي أن مؤرخي المصادر الإسلامية وخاصة المسعودي^(٩٠)

والطبري^(٩١) وابن الأثير^(٩٢) أجمعوا على أن الخليفة عبد الملك لم يكن راغباً في إرسال جيش إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، فعندما أُرسل الحجاج على رأس جيش من أهل الشام لمحاربة ابن الزبير، أمره أن يتخذ الطائف وليس مكة محلاً لإقامته، ويؤكد البلاذري على ذلك أيضاً عندما قال: "إن الحجاج بن يوسف لم يقترب من المدينة ولا من الطريق المؤدي إليها بل سلك طريق الربرة إلى الطائف"^(٩٣). والذي يدعو للدهشة حقاً هو موقف الحجاج من هذه الأحداث وتطورها خاصة بعد وصية عبد الملك له ألا يفر أطيارها ويهتك أستارها ولا يرمي أحجارها وأن يأخذ على ابن الزبير بشعابها ومخارجها وانفاقها حتى يموت فيها جوعاً أو يخرج عنها مخلوعاً وأخيراً قال عبد الملك للحجاج: "أفعل ذلك واجتنب الحرم وأنزل الطائف"^(٩٤). كما أن الغريب في الأمر هنا أيضاً أن يستغل عبد الله بن الزبير حرمة المدينتين المقدستين لأغراض سياسية عندما تحصن بهما معتمداً في ذلك على أن عبد الملك لا يستطيع مهاجمتها دون أن يثير رد فعل شديد ضده من المسلمين، ومن المفترض أن وجهة نظر الحجاج كانت تعتمد على أن احتلال عبد الله بن الزبير للحرم المقدس يهدد وحدة العالم الإسلامي طالما أن مؤيدي عبد الملك كانوا يمنعون من أداء فريضة الحج، وأكثر من ذلك أنه من المستحيل آنذاك وجود خليفتين للمسلمين في آن واحد، وعلى هذا يمكن القول بأن الدوافع الدينية التي كانت في الأصل تمنع عبد الملك من مهاجمة مكة والمدينة هي نفسها التي قادت الحجاج إلى مثل هذا الهجوم^(٩٥).

وتبريراً لضرب الكعبة من قبل الحجاج استخدم هو الآخر الرمز الدعائي والمدارة السياسية التي وظفت توظيفاً واضحاً من أجل هذا الغرض، ويظهر ذلك واضحاً عندما أعلن الحجاج أنه يركز في ضربه على ذلك الجزء الذي ادخله ابن الزبير في الكعبة، وكأنما نظر إلى هذا الجزء الذي لم يكن قائماً

على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أنه ليس مقدسًا، لأنه بني من قبل ابن الزبير. وقد أشار المقدسي إلى ذلك أيضًا عندما قال: "إنه عند مجيء الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة لجأ ابن الزبير إلى الحرم، ولذلك أمر الحجاج بوضع منجنيق على جبل أبي قبيس لضرب ذلك الجزء الذي أضافه عبد الله بن الزبير، والذي يطلق عليه الحطيم"^(٩٦).

كذلك يؤكد "ياقوت الحموي" على ذلك أيضًا في روايته التي قال فيها: "لما قدم الحجاج تحرم ابن الزبير بالكعبة فأمر بوضع المنجنيق على أبي قبيس وقال: أرموا الزيادة التي ابتداعها هذا المتكلف فرموا موضع الحطيم"^(٩٧) وفي إطار استكمال المداراة السياسية وإمعانًا في توثيق توظيف الرمز الدعائي تحقيقًا للغرض السياسي نرى الخليفة عبد الملك بعد مقتل ابن الزبير يعيد بناء الكعبة على الشكل الأول الذي كانت عليه أيام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل بناء ابن الزبير^(٩٨). وكان الحجاج قد كتب إلى عبد الملك يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها بابًا آخر واستأذنه في رد ذلك على ما كانت عليه من بناء قريش فكتب إليه عبد الملك لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء أما ما زاده في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه، وسد بابه الذي فتحه وهنا تم توظيف الأدب أيضًا في تحقيق الأغراض الدعائية السياسية في هذا العصر عندما قال الشاعر في هذه المناسبة رجعت لبیت الله عهد نبيه وأصلحت ما كان الخبيبان أفسد^(٩٩).

٣- السكة^(١٠٠) والمداراة السياسية

من المعروف أن قدرة الدولة السياسية لا بد أن يدعمها قدرة اقتصادية، والقدرة الاقتصادية للدولة غالبًا ما يتحكم فيها الموقف المالي العام، وعند تحليل الموقف المالي للدولة كجزء من القدرة تظهر أهمية السكة وتأثيرها على القرارات السياسية لأن كثيرًا من هذه القرارات لا تتخذ إلا استنادًا

لأسس اقتصادية تضبط هذه القرارات وتحكمها^(١٠١) ومن هنا كانت السكة تلعب دوراً هاماً في تحديد مدى قدرة الدولة في الاعتماد على نفسها رغبة في تحقيق ثباتها وزيادة استقرارها^(١٠٢).

ومن المفترض أن أي دولة ناشئة لا يمكن أن تستقر أو تكون إلا إذا كانت لها سكة خاصة بها يمكن عن طريقها تدعيم الأسس السياسية وتحريك الأسس الاقتصادية إنتاجاً واستهلاكاً وكفاية إنتاجية وتصديراً واستيراداً^(١٠٣). ومن خلال السكة يمكن للحاكم أن يثبت أو ينفي تبعية الولايات له ولحكومته المركزية، لأن السكة وضربها في ديار الإسلام تكون من اختصاص الحاكم العام لجماعة المسلمين سواء كان خليفة أو سلطاناً أو الذين يمثلونه من الولاة ونتيجة لذلك فقد أصبح الاستقلال بالسكة معناه أن تصبح الدولة ذات شخصية مستقلة بعيدة عن مظاهر هذه الدولة أو تلك^(١٠٤).

وعن طريق السكة أيضاً يمكن أن نظهر العلاقة الوثيقة بين الاقتصاد والدولة والسياسة فالسكة بين الحين والآخر كانت من أقوى العوامل التي تؤثر في القرارات السياسية للدولة لأن الدولة التي تبغي استقراراً سياسياً لا بد أن تقيس هذا الاستقرار بمدى قدرتها على ضرب السكة الخاصة بها كجزء مكمل لاستقلالها السياسي^(١٠٥) والدليل على ذلك أنه بمجرد استيلاء حاكم جديد على السلطة سواء كان ذلك بالثورة أو بالحرب يصبح أول امتياز له يعلنه هو ذكر أسمه في الخطبة ومن ثم نقشه على السكة، وبذلك تكتمل مقومات الاستقلال بالدليل المادي الذي لا يكذب ولا يحابي. ومن هنا اعتبر المؤرخون السكة من أهم المصادر المتممة لدراسة التاريخ السياسي للدولة، لهذا كان اهتمامنا بها كمظهر دعائي استخدمته كل القوى المتصارعة ضرورياً، فقد كان الهدف من السكة أولاً سياسياً لتحقيق استقلالية الدولة وسيادتها على بقية الدول الأخرى، واقتصادياً لتحقيق الاستقرار المالي

المرتبطة بالمعاملات التجارية، إضافة إلى ذلك استُخدمت لتحقيق غايات دعائية ومداراه سياسية على المستوى الداخلي والخارجي على حد سواء، وهكذا كانت السكة تمثل شارة من شارات الملك التي اهتمت بها الدول وحرصت على سكها والإشراف عليها وسجلت عليها عقائدها الدينية والمذهبية وشعاراتها السياسية، وهذا شأن المسكوكات منذ اختراع الإنسان لها في القرن السابع قبل الميلاد^(١٠٦).

أ- سكة عبد الملك

الحقيقة التي لا مراء فيها أن هناك محاولات متتالية نحو التعريب والسكة قد جرت قبل عبد الملك وارتبطت ارتباطاً واضحاً بالظروف السياسية والاقتصادية للدولة الإسلامية بدأت على عهد عمر بن الخطاب فعندما امتدت الفتوحات الإسلامية واتسعت رقعتها حرص خليفة المسلمين على إضافة نقوش عربية إسلامية على النقود التي كانت متداولة مشيراً بذلك إلى الشخصية العربية، فقد ذكر "المقرئزي" أن الخليفة عمر سنة ١٨هـ - ٦٣٩م ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها، غير أنه زاد في بعضها "الحمد لله" وفي بعضها "لا إله إلا الله وحده"^(١٠٧).

وكذلك هناك دراهم ضربت سنة ٢٠هـ - ٦٤١م تحمل نقوشاً نصها "باسم الله" "وباسم الله ربي" كما ضربت الفلوس على طراز هرقل سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م ظهرت عليها البسمة وتبعها كلمة التوحيد، كذلك على الدنانير من الطراز نفسه^(١٠٨). وهكذا بدأت ارهاصات تعريب المسكوكات على يد الخليفة "عمر بن الخطاب" وتشير المصادر أيضاً إلى أن الخليفة عثمان تابع المسيرة وضرب دراهم عليها عبارة "الله وأكبر"^(١٠٩).

وتفصح هذه العبارات العربية على عقيدة الدولة واتجاهها نحو التعريب، كما أنها تشير إلى استمرار دور الضرب في المدن المفتوحة في عملها في

سك السكة تحت الإشراف العربي الإسلامي الجديد، وبعد مقتل عثمان كان ما كان من تعرض الدولة الإسلامية لاضطرابات سياسية انتهت بسيطرة الأمويين على الحكم، تلك السيطرة التي قاومتها اتجاهات سياسية أخرى تسببت في كثير من الثورات حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي استطاع أن يقضي عليها وكانت هذه الاضطرابات من العوامل التي أدت إلى التفكير في تعريب السكة تعريباً كاملاً لتأكيد سيادة الدولة بعد ما انحصرت سيطرتها في بعض الأحيان على بلاد الشام فقط^(١١٠).

ولم تكن هذه النقطة بالذات — سياسة التعريب — غائبة عن ذهن الخلفاء الأمويين الأوائل ولكنها تأخرت حتى عهد عبد الملك، لأن الأمويين اقتضت ظروفهم السياسية في ذلك الوقت عدم خوض الحرب في جبهات متعددة داخلياً وخارجياً ففي تلك الفترة البكرة من قيام الدولة واجه الأمويون الانقسامات الداخلية التي تكلمنا عنها من قبل، فكانت الحكمة السياسية تقضي مهادنة القوى الخارجية المتمثلة في الدولة البيزنطية وعدم استفزازها بضرب سكة مخالفة لها، خاصة وأن الدولة البيزنطية كانت تعتبر نفسها صاحبة الحق الشرعي الوحيد في ضرب السكة^(١١١).

كما أن الدولة الأموية في هذه الأثناء فقدت ولاء كثير من الأقاليم التي بايعت وخضعت لسلطات التائرين عليها بل أن هؤلاء التائرين في هذه الأقاليم المختلفة إعلاناً عن عدم خضوعهم للدولة الأموية، قاموا بضرب المسكوكات الخاصة بهم، والتي تؤكد استقلالهم، في ظل هذه الظروف، حرص عبد الملك بن مروان على ضرب المسكوكات التي تؤكد سلطة دولته السياسية، تلك السلطة التي لم تجد المبايعة الكاملة والتي قوبلت بالثورة من العلويين والخوارج والزبيريين. ولما قضى عبد الملك على تلك الثورات التي قامت ضده وسيطر على أمور الدولة وأقاليمها سيطرة كاملة وهو ما أطلق

عليه عام الجماعة الثاني سنة ٧٣هـ بدأ عبد الملك يفكر في سياسة التعريب وبدأ بالمسكوكات في إطار هذه السياسة^(١١٢).

في مثل هذا الجو، كانت نقود عبد الملك هي الدليل المادي الدال على استغلاله للمسكوكات كمداة سياسية وراء المظاهر الحضارية وكان الهدف منها تأكيد سلطة الدولة الأموية، وذلك لأن النقود من أكثر وحدات السكة انتشاراً في المعاملات اليومية كسواء حتى محقرات السلع والمواد الغذائية وغيرها. ومن ناحية أخرى فإن نقش صورة عبد الملك كان بمثابة خطة إستراتيجية وليس مظهرًا حضاريًا فقط، والغرض منه تحقيق المخزي الدعائي عن طريق الرمز السياسي القائم على الانتشار الواسع للمدى بين فئات المجتمع الإسلامي غنيها وفقيرها، ولابد من الإشارة هنا إلى ما أكدنا عليه سابقاً من أن الظروف السياسية في هذه الفترة الحرجة هي التي جعلت الأمويين ينتزعون سلطة الاستقرار التي كانوا في أمس الحاجة إليها، والتي لم تكن لتأتي إلا من خلال التركيز على الأوضاع الداخلية عن طريق كسب إجماع عام من فئات المجتمع يدعم هذه السلطة عن طريق انتشار واسع للسكة. وإذا بحثنا هذه النقطة جيداً لوجدنا أن هناك دوافع اقتصادية محلية إلى جانب الظروف السياسية كانت وراء مسارعة عبد الملك بتعريب السكة أهمها اتساع دائرة النشاط التجاري للدولة مع عدم استقرارها في عهد عبد الملك وما ترتب عليه من عدم استقرار لقيمة النقد وما نتج عنه من تلاعب في الأسعار مما أزعج الخليفة عبد الملك تماماً، فرأى ضرورة العمل على توحيد أسعار النقود وأوزانها بإخضاعها لإشراف دقيق^(١١٣).

وقد أشار "ابن خلدون" إلى ذلك إشارة واضحة لا لبس فيها عندما ذكر أن عبد الملك رأي "اتخاذ السكة لصيانة النقديين الجاريين في معاملة المسلمين من الغش فعين مقدارهما"^(١١٤) وأشار إلى ذلك أيضاً "ابن الأزرق" عندما

ذكر بكل وضوح "أن الغش في الدراهم تفاحش لغفلة الدولة عن ذلك، فأمر عبد الملك الحجاج بضرب الدراهم سنة أربع وسبعين، ثم أمر بضربها في سائر النواحي سنة ستة وسبعون"^(١١٥). إذن ضرب عبد الملك سكته المعربة ليحقق على المستوى الداخلي أهدافاً اقتصادية للدولة تمثلت في تزويد السوق بحاجاته من مسكوكات عربية إسلامية تحمل شعار الدولة، وتبعد عن أي تأثيرات وارتباطات خارجية، وهذا من شأنه أن يعمل على استقرار السوق، حيث كان تزيف العملة وغشها من الظواهر التي أدت إلى إرباك المعاملات التجارية كما أن ضرب هذه السكة كان يساعد على حل المشكلات الناجمة عن اختلاف النظم المالية السائدة في الأقاليم المختلفة، وما نتج عنه من اختلاف الجزية والخراج والعشور في العراق وفارس ومصر والشام.

ولو عدنا مرة أخرى إلى الإدارة السياسية في سكة عبد الملك نجد أنها تكمن هنا في صورة عبد الملك التي نقشت على السكة بسمات عربية إسلامية خالصة كأن لها دلالتها الدعائية الرمزية كالسيف الذي يتقلده الخليفة في وسطه قابضاً عليه بيمينه لكل من تسول له نفسه الخروج عليه، وهو علامة الإمامة عند المسلمين، وإذا عرفنا مدى حرص عبد الملك على إبراز الرموز الدعائية التي تدل على الخلافة^(١١٦) لتبين لنا أهمية نقش مثل هذه الصورة على الدنانير في هذه الفترة بالذات التي ضربت فيها دنانير عبد الملك المصورة، فقد كانت بمثابة مدارة سياسية واضحة تؤكد على تمتع الخليفة بإجماع المسلمين على خلافته إجماعاً لم يتحقق لسابقه بقوة السلاح، بعد أن قضى على كل ما واجهه من فتن وثورات داخلية مضادة من قبل الخارجيين على الدولة الأموية والذين ضربوا مسكوكات ثائرة كرمز لاستقلالهم وعدم خضوعهم لسلطان الخليفة الأموي.

وقد أكد هذه المداراة، الرمز الذي يحمل صورة الخليفة مشهراً سيفه، ومن هنا كانت هذه الصورة تحمل مدلولاً سياسياً هاماً يؤكد على سلطة الأمويين ولاسيما في المناطق التي انتشرت فيها مسكوكات الثائرين على الخلافة قبل القضاء عليهم. وقد عمل عبد الملك على انتشار مسكوكاته بكل الصور ليؤكد سلطته عندما استخدم سياسة الترغيب حيناً والترهيب أحياناً لنشر هذه السكة الجديدة، وقد اتخذ في ذلك خطوات فعالة منها أنه جعل هذه السكة هي العملة الوحيدة التي يجري التعامل بها في المعاملات الرسمية بصفة عامة، وقد وصل الأمر إلى حد التهديد بالقتل لكل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير التي ضربها، وأن تبطل المعاملات بغير هذه السكة^(١١٧). وإن كان البعض قد عاب على عبد الملك هذا التصرف إلا أنني أرى أنه لا غرابة في ذلك لأن المظاهر الحضارية والمدارة السياسية لا بد أن تخدم الجهاز الحكومي، وهي نشأت في ظل الإشراف الحكومي، وقد فطنت كل القوى المتصارعة في ذلك الوقت إلى خطورة هذه المظاهر الحضارية، فكان من الطبيعي أن تعبر هذه المظاهر عن سيطرتها منذ الوهلة الأولى وفقاً لما يخدم مصالح حكامها وكان من نتيجة هذه الإجراءات التي اتخذها عبد الملك أن ساعدت على رواج سكته وانتشارها وانحسار المسكوكات الأخرى التي سوف نتكلم عنها بعد قليل.

هذه السياسة أصبحت كقيلة بسحب المسكوكات الأخرى من الأسواق وصهرها وضربها من جديد بالسكة المروانية. ولا شك أن تعامل الخليفة والجهات الرسمية بهذه السكة الجديدة كان من العوامل الأساسية المطمئنة والحافز للعامة على التعامل بها "قال الناس على دين ملوكهم" ومن ناحية أخرى تشدد عبد الملك مع كل من كان يحاول ضرب السكة من غير جهتها الرسمية للقضاء على مظاهر التزييف والغش^(١١٨) وقد ساعد على تحقيق هذه السياسة

التزام أمراء أشداء تقانوا في تنفيذ هذه الخطة "كالحجاج بن يوسف الثقفي" الذي ضرب السكة باسمه من منطلق أنه والى الخليفة عبد الملك في بلاد العراق وأنه ينفذ أوامر والي في ضرب هذه الدراهم^(١١٩). وقد كان من الطبيعي أن يوظف الحجاج السكة ونقوشها لغايات سياسية دعائية وافقت الظروف السياسية التي تمر بها الدولة بصفة عامة وأقاليمها الشرقية على وجه الخصوص.

ولكي تكتمل الصورة لابد من الإشارة هنا إلى الكتابات التي نقشت على سكة عبد الملك ومدلولها السياسي، فليس من المتصور على الإطلاق أن تكون هذه الكتابات عائقاً لحركته السياسية نحو التقدم والاستقلال فإلى جانب صورة عبد الملك التي تحدثنا عنها من قبل وهو متقلداً سيفه قابضاً عليه بيمينه ويرتدى عباءة فضفاضة وتعلو رأسه ملفحة تسدل على كتفيه كما لو كانت شعرًا مجعدًا وكانت تحيط بالصورة كتابة كوفية نصها "بسم الله أمير المؤمنين" إلى جانب البسملة وشهادة التوحيد^(١٢٠). والمدلول السياسي من وراء هذه الكتابات كان يتمثل في إظهار شعار الدولة الإسلامية ممثلًا في شهادة التوحيد والرسالة المحمدية والتي تشير بوضوح إلى تذكير المسلمين وغيرهم بعزة الإسلام ومنعته وقوته، التي قضت على دولة بني ساسان خاصة إذا ذكرنا أنه حتى هذه اللحظة لم تمنح صورة كسرى من على السكة^(١٢١).

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال هام مفاده لماذا لم تمنح صورة كسرى حتى الآن من سكة عبد الملك، وهو يحاول أن يؤكد على استقلالية دولته الناشئة؟! وإذا أطلقنا طاقات العقل الإنساني في هذا المجال لوجدنا أن عبد الملك كان محقًا في ذلك تمامًا فاحتفاظه هنا بنقش صورة كسرى الفرس على السكة رغم زوال ملك الدولة الساسانية كان لعدم الرغبة في التغيير المفاجئ تمهيدًا

لأن يتم ذلك بعد مرحلة انتقالية امتدت من السنوات ٧٦ حتى ٧٩هـ وهي السنوات العجاف في تاريخ عبد الملك.

كما أن العامة في الولايات الشرقية كانوا قد اعتادوا على نقش الدراهم بهذه الصورة حتى في العهد الإسلامي، ولما كانت الحاجة تدعو إلى تهئية مناخ مناسب لقبول السكة الجديدة بأوزانها الشرعية في التعامل، فقد كان لابد من ضرب هذه السكة بنقش صورة كسرى وهو مدعاة لأن يتعاطف معها العامة من أهالي هذه البلاد مع السلطة القائمة الجديدة، وهو هدف سياسي سعت إلى تحقيقه أيضا الفئات المعارضة الأخرى حيث إننا سنجد هذه الصورة أيضا على مسكوكات الزبيريين والخوارج^(١٢٢).

وفي الوقت نفسه كان عبد الملك من الذكاء الشديد عندما نقش صورته على الظهر وحولها النص الكتاب "باسم الله أمير المؤمنين" وهو ما يؤكد على لقب الخلافة، ويرمز إلى الوضع السياسي الجديد الذي أصبحت عليه الأقاليم التي كانت تابعة لعبد الله بن الزبير والخوارج من قبل، وهكذا تطلب المناخ السياسي أعمال الرموز السياسية الدعائية التي تؤكد السلطة الكاملة للأمويين ممثلة في شخصية الخليفة عبد الملك في شكل يجسد قوتها التي كفلت لها ذلك.

ومن ناحية أخرى كانت صورة عبد الملك والنقش الذي عليها بهذه الكيفية بمثابة رسالة أرسلها عبد الملك من خلال السكة إلى كل من تسول له نفسه معارضة خلافته وشعاراتها ورسومها ومن بينها السكة نفسها، ويكفي أن نذكر هنا ما نطق به لسانه هو نفسه في خطبة من خطبة وفيها ما يؤكد على هذه المعاني الدعائية لصورته قابضاً على سيفه، حيث قال: مخاطباً أهل المدينة عند حجة سنة ٧٥هـ: "أما بعد فلست بالخليفة المستضعف - ويقصد عثمان - ولا الخليفة المداهن - ويرمز إلى معاوية - ولا الخليفة المأفون

— قليل الحيلة والتصرف ويعني يزيد ألا وإني لا أدوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم" وفي موضع آخر يقول: "تكلفوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم، ألا وإنا نتحمل لكم كل شيء إلا وثوبًا على أمير، أو نصب راية، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه" ثم نزل (١٢٣).

ولعل كثيرًا من أوجه الالتقاء تتضح هنا بين المظاهر الدعائية وسياسة الحزم لعبد الملك، وإذا ما تجاوزنا مستوى النقوش والمصطلحات اللغوية إلى الجوهر الحقيقي للمعاني نجد عبد الملك يؤكد على السيف والقوة وهو ينصح ابنه الوليد قبل وفاته قائلاً: "إذا أنا مت فشمّر وانتزر وألبس جلد نمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك، فأضرب عنقه ومن سكت مات بدائه" (١٢٤).

ب- سكة الزبير والمدارة السياسية

وكما سبق وأن ذكرنا ودون ترفع أو مغالاة نؤكد أن كل الأطراف المتنازعة استخدمت سلاحًا مشابهًا للآخر في مجال المدارة السياسية وراء المظاهر الحضارية والحقيقة أن سياسة عبد الملك في مجال السكة في ذلك الوقت ما كانت إلا رد فعل لسياسة "عبد الله بن الزبير" سبقه فيها، حيث تشير المصادر إلى أن أول من ضرب الدراهم كان عبد الله بن الزبير، بعد ما أعلن نفسه خليفة المسلمين عندما رفض مبايعة "يزيد بن معاوية" ودانت لحكمه في وقت من الأوقات مصر والعراق وفارس والحجاز واليمن، وكادت الشام أن تبايعه أيضًا لكن سرعان ما استطاع مروان بن الحكم استعادة مصر (١٢٥).

ثم بدأت الدولة الأموية في تدعيم أركان حكمها انطلاقاً من الشام ومصر فخاضت حروبها مع الزبيريين والخوارج حتى استطاع عبد الملك القضاء عليهم وإذا نظرنا إلى ما قام به "عبد الله بن الزبير" من ضربة للسكة كرمز دعائي سياسي في مكة نجد أنها كانت عبارة عن دراهم نقش بأحد الوجهين بها "محمد رسول الله" وعلى الوجه الآخر "أمر الله بالوفاء والعدل" وكذلك نقش على هذه الدراهم لقب "أمير المؤمنين"^(١٢٦). وتكشف هذه النصوص عن التوجه الدعائي والمداراة السياسية الواضحة، ففي تسجيل عبد الله بن الزبير للنص "محمد رسول الله" ما يوحي بصلته برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدث هذا بعد ذلك أيضاً من خلال نصوص أخرى وجدت على عهد العباسيين نقشت مكتوب عليها "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى"^(١٢٧). ونذكر ذلك هنا حتى يتضح لنا الإيحاء بالمعني، لو قارنا بين هذه النصوص الثائرة سواء على عهد الزبيريين أو العباسيين وغيرهم.

أما نص "أمر الله بالوفاء والعدل" على سكة الزبير فهو إشارة صريحة مباشرة إلى مخالفة الأمويين لبنود مؤتمر الصلح الأول الذي عقد سنة ٤١هـ والذي كان يقضى بإتباع مبدأ الشورى في تعيين خليفة المسلمين بعد خلافة "معاوية بن أبي سفيان" وتحويله إلى الوراثية بتعيين "يزيد بن معاوية" وربما يكون إلى جانب ذلك ارتباط النص بما حدث من غش وتزييف ورداءة للمسكوكات في هذه الفترة^(١٢٨). لأن تحقيق الميزان الوافي للدراهم كان من المقومات الأساسية التي تكفل الإقبال على هذه الدراهم ذلك الإقبال الذي يتبعه تأييد للنظام الذي قام بضربها. وهكذا كانت دراهم الزبيريين بوزنها الشرعي وبنصوصها التي تؤكد على سلامة هذا الوزن أو على مخالفة الأمويين لمبدأ هام في أمور الدين تمثل رمزا دعائيا أدّى إلى تعاطف العامة مع حكمهم، وهكذا سبق "عبد الله بن الزبير" عبد الملك بن مروان في

توظيف السكة توظيفاً دعائياً سياسياً ثم هذا حذوه بعد ذلك الخليفة عبد الملك في تعريبه للسكة، ولعل ما أزعج عبد الملك في ذلك هو تسجيل ابن الزبير للقب "أمير المؤمنين" على سكوته قبل تسجيل عبد الملك لها. ومن هنا نستطيع أن نقول، بلا تردد إن المظهر الحضاري الدعائي أدى إلى الشعور بالمساواة بين الخصمين المتنازعين بما يتيح لكل فرد فرصة متساوية مع الآخر. لقد علم "عبد الله بن الزبير" كما أمن "عبد الملك" أيضاً بأن المظهر الحضاري يتميز بالاستمرارية والدوام، فهو من أهم العوامل المؤثرة في السياسة لذلك نجد الزبير يأمر أخاه "مصعب" بضرب السكة في الولايات التي كان يحكمها شمالاً في البصرة وكرمان ونهاوند، وغيرها وقد وجدت هذه السكة قبولاً في التعامل بين شعوب هذه البلاد التابعة لخلافتهم، وقد حقق هذا القبول الغرض السياسي من ضربها عندما انتشرت مسكوكات الزبيريين حاملة شعارهم وخلافتهم في بلاد العراق وإيران، وهكذا نجحت سكة الزبيريين في تحقيق أهدافها الدعائية السياسية، الأمر الذي أزعج عبد الملك، والحجاج الذي حرص هو أيضاً أشد الحرص على مصادرة هذه السكة وإخفائها وهو يقول: "ما ينبغي أن نترك من سنة الفاسق شيئاً" فغيرها^(١٢٩). وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن ضرب الزبيريين لمسكوكاتهم التي تحمل شعاراتهم لتحقيق غاياتهم الدعائية والسياسية قد أزعجت الأمويين ولذلك بادروا بإنهاء أثرها عندما حانت فرصتهم لذلك.

ج - سكة الخوارج والمداراة السياسية

كذلك ضرب الخوارج السكة في عهد "عبد الملك" على طريقة المداراة السياسية أيضاً، وسجلوا عليها شعارهم الذي يؤكد على عدم خضوعهم للأمويين واتجاههم نحو مقاومة السلطة الأموية التي لا يعترفون بها ويسعون للقضاء عليها رغبة في الوصول إلى الحكم. ومن أشهر قادة الخوارج الذين

ضربوا السكة في عهد عبد الملك بن مروان، كان "عطية بن الأسود" و"قطري بن الفجاءة"^(١٢٠). الذي اختير أميراً للخوارج الأزارقة سنة ٦٨هـ، وقد حكم ما يقرب من عشر سنوات في كرمان وفارس والأهواز ضرب خلالها السكة باسمه وقد سار الخوارج على نهج مشابه لنهج الزبيريين في سك نفودهم من حيث ضربها على الطراز الساساني مع إضافة شعاراتهم عليها، وهذه السياسة اتبعت دوماً لتجد هذه السكة رواجاً في البلاد الخاضعة لهم، ليتعاطف معها المتعاطفون بما تحمله من شعارات وبما يحقق المداراة السياسية لها، وحتى تكون متشابهة في الشكل العام مع نفود الأحزاب الأخرى التي ضربت السكة أيضاً. وتكمن المداراة السياسية في سكة الخوارج هنا في شعارهم الذي نقش عليها "لا حكم إلا لله" ذلك الشعار الذي نادى به ممثلاً الخوارج "زرعة الطائي وحر قوص السعدي" عندما قابلاً علي بن أبي طالب رضي الله عنه لإثباته عن قبول التحكيم، وهو الشعار الذي أشار إليه "علي" رضي الله عنه بأنه قولة حق أريد بها باطل، عندما خطب في مؤيديه بعد رفضه لدعوة الخوارج برفض التحكيم^(١٢١).

أما لقب "أمير المؤمنين" الذي حرصت عليه جميع الفرق المتناحرة يشير إشارة واضحة لا لبس فيها إلي أي مدي تم توظيف السكة في المداراة السياسية توظيفاً واضحاً ويعكس في الوقت نفسه الصراع السياسي بين الأحزاب المتصارعة في فترة حكم عبد الملك بن مروان أيضاً، وقد تنطوي بعض المظاهر الحضارية، ومنها السكة، علي خلق تطلعات قد يكون مبالغاً فيها، ولكنها تخلق نوعاً من الحماس عند الأفراد والجماعات المؤيدين. وفي نفس الوقت تذمر وسخط تجاه الخصوم السياسيين.

والآن ننتقل إلى نقطة أخرى جديرة بالإشارة وهي التمسك بالشعور الديني وإظهاره على السكة عند كل الأطراف المتنازعة. ففي الوقت الذي اعتمد فيه

التراث الغربي علي النقل البشري الذي يفصل بين الدين والدولة نجد المظهر الحضاري الإسلامي يعتمد علي الدين لذلك يمتزج التراث الحضاري الإسلامي بين الدين والدولة، ومن هنا شملت مسئولية وليّ الأمر سواء كان شيعيًا أو خارجيًا أو زبيريًا أو أمويًا أو أي تنظيم من التنظيمات التي ظهرت في الإسلام علي رعاية أمور الدين والدنيا، ونتيجة لذلك قامت الرابطة بين الفرد والمجتمع وبينه وبين الدولة علي أساس رابطة الدين وجعلها أسمى ما عداها من روابط سواء كانت سياسية أو اجتماعية.

والمدارة السياسية التي تكمن في الشعور الديني وإظهاره تعمل علي تحميس جموع المؤيدين علي اعتبار أن الدعاية تمثل أحد مستويات التعامل النفسي بين الدولة والمواطن وفي مجتمع يمثل فيه الدين الركيزة الأساسية، لذا فإن الدعاية الموجهة إلي هذا المواطن، لا يمكنها التخلي عن صبغتها الدينية خاصة بالنسبة لمقوماتها التي تتبني عليها أساسًا. والتي تؤصل علي ضوءها الفلسفة السياسية للنظام الاجتماعي السائد، ولهذا اصطبغت الأحزاب السياسية في ذلك الوقت بالصبغة الدينية وكان لكل منها أصوله التي تعتمد في مقوماتها علي تصورات دينية فالأحزاب السياسية في حقيقتها فرق دينية تصارعت من منطلق فهمها الديني لنظرية الإمامة والخلافة، كما كانت الدعاية في ذلك الوقت مفهومًا مرادفًا للدعوة، فالدعوة نشر للدين، وإقامة دولة توطن وتدعم الدين، والدعاية تدعيم لسلطة قائمة أو الرغبة في الوصول إلي السلطة تحقيقًا لتصور ديني قائم ومحدد، ومن هنا نجد أن الدعوه والدعاية في ذلك الوقت وجهان لعملة واحدة أناط بهما وليّ الأمر.

وبهذا الرابط وبهذه الشمولية قامت المظاهر الحضارية في خدمة الأحزاب السياسية تحت ستار من الدين مكين، وقد عكست سكة الخوارج كمظهر حضاري ومدارة كل ما يتصل بالسياسات العامة، وخاصة في مجال

المعارك الكثيرة التي خاضوها مع خصومهم السياسيين سواء كانوا زبيريين أو أمويين تحت قيادة زعيمهم "قطري بن الفجاءة" الذي كان يسيطر على "خوزستان وفارس وكرمان" وهدد البصرة وحاصرها^(١٣٢).

وقد تركت هذه الانتصارات أثراً نفسياً إيجابياً على "قطري" وانعكس ذلك على سكتته حيث نقش عليها لفظ "الحاكم اللبث" ومن هنا نستطيع أن نقول إن المظهر الحضاري يعمل أحياناً كإنذار سريع عن التهديدات والأخطار التي تقع على الخصوم، ويظهر ذلك واضحاً في شجاعة الخوارج التي أحرجت الدولة الأموية والزبيريين في آن واحد مما جعل الأمويين يتخذون مبدأ الجِد في حروبهم ضد "قطري" والتي استمرت سنين عدداً إلى أن تم قتله والقضاء عليه في سنة ٨٧هـ^(١٣٣). وقد وظف الخوارج السكة توظيفاً دعائياً مغرضاً ويمكن أن نلاحظ ذلك التوظيف الدعائي من خلال سكة "عطية بن الأسود" الذي انشق عن الخوارج الأزارقة واستطاع الاستيلاء على البحرين وحضرموت واليمن والطائف ثم تركها وتوجه إلى كرمان وهناك ضرب السكة باسمه^(١٣٤). وعليها شعار "بسم الله ولي الأمر" دامت المملكة نامية وتعكس هنا نقوش مسكوكات عطية وضعه السياسي بدقة ممثلة في نقش البسملة متبوعاً بلقب "ولي الأمر" والإشارة المرغبة في اتساع ملكه ومملكته ممثلة في النقش "دامت المملكة باقية" ويلاحظ هنا غياب نقش شعار الخوارج الأصلي "لا حكم إلا لله" وربما بسبب الخلاف الذي حدث بينه وبين الخوارج الأزارقة وبهذا جاءت سكة عطية لتعكس بوضوح وضعه السياسي الذي كان يمر به في بداية مراحلها الأولى عندما سيطر على كرمان والتي لم تستمر طويلاً تحت يده بسبب قضاء "المهلب بن أبي صفرة" عليه^(١٣٥).

كان من الطبيعي بعد ذلك أن يقوم "المهلب بن أبي صفرة" الذي قاد الجيوش ضد الخوارج أن يقوم بضرب السكة باسمه بإيعاز من الخليفة "عبد

الملك" وقد نقش على أحد وجهيها صورة نصفية لشخص ذو لحية وعليه رداء ويرتدي كوفية ونقش بجوارها أسم "المهلب" وعلى الوجه الآخر صورة الخليفة "عبد الملك" وهو ما يشير إلى تكرار توظيف الصورة كرمز دعائي على السكة، وهناك مثلاً مشابهاً آخر لسكة ضربت في إفريقية يعتقد أنها صورة تمثل القائد "موسي بن نصير"^(١٣٦). وهو ما يعني أن عبد الملك سمح للأمرء الذين قادوا الجيوش بضرب مسكوكات محلية سارت وفق النهج الدعائي له.

د. سكة عبد الرحمن الأشعث

كثيراً ما يقال إن الإنسان صانع الأحداث، فقد تقال هذه العبارات في كلمات وصياغات مختلفة منها السكة على اعتبار أنها شارة من شارات الملك، ومهما اختلفت هذه الصياغات فقد تبقى الحقيقة الأساسية وهي أن المظهر الحضاري ليس فتحاً ثقافياً خالصاً إنما في الحقيقة هو فتح سياسي أيضاً، سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، وسواء كان عن قصد أو دون قصد، ويظهر ذلك واضحاً جلياً في سكة "عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث" التي قام بضربها باسمه عقب الثورة التي قام بها ضد الأمويين، والتي امتدت من سنة ٨٠ حتى تم القضاء عليها نهائياً سنة ٨٥هـ وطوال خمس سنوات أمضاها هذا الرجل في فارس لم يتوان في ضرب السكة باسمه بعد معارك مضيئة خاضها مع الحجاج خالفة فيها التوفيق والنصر وامتد سلطانه ليصل إلى البصرة والكوفة^(١٣٧).

وكانت هذه هي أعظم انتصارات "ابن الأشعث" لذلك كان لا بد علينا نحن المؤرخين من فك رموز هذه السكة، والربط بين ما وجد عليها من نقوش، وبين الأحداث التاريخية وجدت هذه السكة تحتوى على نقش يحمل صورته وهو رافعاً يديه كما لو كان يدعو في الصلاة ويتمنطق في وسطه بسيف.

وكتب على القطعة كلمة "المنصور" وعبارة "العزة لله". وعبارة "المنصور" التي وجدت على سكوته تشير إلى النصر الذي حققه على الحجاج، وعبارة "العزة لله" تشير إلى سياسة الحجاج المتشددة وعلى هذا فمن المؤكد أن يكون ضرب هذه السكة كان في أعقاب هذا الانتصار مباشرة، وتشير المصادر التاريخية أيضاً إلى أن الشاعر "بنت سهم" هي التي أطلقت عليه هذا اللقب^(١٣٨). كما قيل إنه سمي نفسه "ناصر المؤمنين"^(١٣٩). بما يفصح بجلاء عن المناخ الدعائي والمدارة السياسية التي صاحبت ثورة ابن الأشعث التي أيدتها فئات مختلفة كالموالي والخوارج والمرجئة جمعها الحقن على سياسة الحجاج، وتفضيل أهل الشام عليهم وما تعرضوا له من ظلم في العطاء ولاسيما بين الجند الذين انقلبوا على الأمويين.

وإذا قمنا بتحليل الرمز الدعائي في عبارة "العزة لله" نجد أنها رد طبيعي على إهانة الحجاج لقائد الثورة عبد الرحمن ابن الأشعث وهو الدافع الأساسي في هذه الثورة التي انضم إليه أناس آخرون جمعهم تشدد الحجاج وتذمرهم منه لعدم مساواته في العطاء، ومن ثم التقت مآرب هؤلاء لخلع سيادة أهل الشام^(١٤٠) ومن هنا نجد أن هناك توافقاً بين شعار "العزة لله" وبين الشعور العام الذي حرك هذه الثورة ضد الأمويين فكان تسجيل هذه العبارة له مغزى دعائي واضح أما نقش الصورة على السكة التي ضربها "ابن الأشعث" فله مداراته ودلالته السياسية أيضاً وفيها يرفع "ابن الأشعث" يديه إلى أعلى في هيئة من يدعو ربه حاسراً رأسه عن أي غطاء يعطى دلالة بليغة عن أن المعين هو الله الذي له العزة ومنه النصر وبه يستعين^(١٤١).

ومن هنا نجد توافقاً ملحوظاً بين الصورة والمعاني التي عليها حيث إن "عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث" كان قائداً بارزاً في جيوش الأمويين، وارتد بثورة ضد "الحجاج" الذي اشتد في إهانته، وأعلن نفسه خليفه وخلع

طاعة "عبد الملك بن مروان" ونعود هنا إلى ما أكدنا عليه سابقاً وهو لماذا حرصت جميع الأطراف المتصارعة التي قامت بضرب السكة باسمها على إبقاء صورة كسرى الفرس في حين أزلت صورة الإمبراطور البيزنطي في ذلك الوقت، ونلاحظ ذلك واضحاً في سكة الأمويين والزيبريين والخوارج وفي سكة ابن الأشعث أيضاً، والحقيقة أن الإجابة على هذا السؤال تسير في السياق الذي يدور حوله هذا البحث، بمعنى أن إبقاء صورة ملك زائل مثل كسرى له مداراته السياسية ودلالاته الدعائية الواضحة، كما أن حذف صورة إمبراطور قائم بيزنطي، يكشف هو الآخر عن دلالة سياسية ودعائية عميقة الأثر، ورغم ما يقدمه الأثريون من روايات كثيرة في هذا الشأن إلا أننا نحن المؤرخين لنا تفسيرات وآراء متعددة حول هذه النقطة، في البداية نستطيع أن نقول إن الموضع المكاني لعب دوره واضحاً في الحذف والإبقاء، بمعنى أن الالتزام بالنقوش الساسانية في بلاد العراق وإيران كان من أجل القبول والانتشار في التداول، وهي النقود التي ألفتها العامة في هذه البلاد، والغرض السياسي يكمن هنا في عدم الرغبة في التغيير المفاجئ على أن يتم ذلك بعد مرحلة انتقالية امتدت لعدة سنوات حتى سنة ٧٩هـ، ومن هنا هيئت جميع الأطراف المتنازعة المناخ لقبول سكتها بأوزانها الشرعية في التعامل، وكان ضرب هذه النقود وعليها صورة كسرى مدعاة لأن يتعاطف معها العامة من أهالي هذه البلاد وهو هدف سياسي سعت إليه الفئات المتصارعة جميعها. ومن هنا كان بقاء صورة ملك زائل على السكة التي ضربت والتي تعامل بها غالب مجتمع هذه البلاد الهدف منه الحرص على قبول هذا المجتمع للسكة الجديدة، وأحياناً تعاطفه معها ولاسيما وأن ذلك يرتبط بجذورهم التاريخية وتراث آبائهم وأجدادهم^(١٤٢).

أما حذف صورة إمبراطور بيزنطي قائم فقد كان له أيضًا دلالة سياسية الواضحة، فلم يكن أهل البلاد المفتوحة في مصر والشام ينظرون إلى هذا الإمبراطور نظرة احترام، وطالما عانى أهل هذه البلاد من عنثهم واضطهادهم، ومن ثم لم يكن حذف صورة الإمبراطور ليترك أثرًا سيئًا في نفوس العامة في هذه المناطق، وعلى العكس من ذلك تمامًا إذا نظرنا إلى مسكوكات الأمويين في شمال أفريقية والأندلس نجد أنها سايرت مسكوكات المشرق العربي من حيث الموضع المكاني والالتزام بإبقاء صورة الإمبراطور، حيث إن الفتح الإسلامي لأفريقية استمر سنين عددًا لظروف عديدة منها المقاومة الشديدة وطبيعة البلاد الطبوغرافية، والظروف السياسية التي مرت بها الخلافة في المشرق، كل هذا جعل عبد الملك يقلد النقود البيزنطية تقليدًا تامًا حيث كانت تنقش عليها صورة الإمبراطور، وعلى الوجه الآخر نقش الصليب مع إضافة عبارة للتوحيد بحروف لاتينية^(١٤٣).

ثم تلا ذلك تسجيل النصوص باللغة العربية مع الإبقاء على الحروف اللاتينية في الهامش وبعد ذلك اكتملت مراحل التعريب بخطوات متتابعة إلى أن انتهت بالتعريب الكامل وهنا نلاحظ الشبه في خطوات تعريب هذه المسكوكات في المغرب مع تعريب مسكوكات المشرق، وهو نفس الاتجاه السياسي القائم على التدرج في مراحل متتالية، لأن التغير المفاجئ غير مفضل في السياسات الاقتصادية التي تتصل اتصالًا مباشرًا بثروات الرعية كما أن التدرج يهيئ المناخ لقبول المسكوكات الجديدة بعد التعود على الطراز القديم، والحقيقة أن بقاء صورة ملك زائل على سكة ليس فيه ما يشين سواء كان وثنيًا أو مسيحيًا لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أقر ما كان قائمًا في التعامل من مسكوكات بيزنطية أو ساسانية أو حميرية بما عليها من نقوش مسيحية أو وثنية أو صور لملوك وأباطرة، كما أقر وزن الدينار. وإن

كانت بعض المصادر قد أشارت إلى أن "معاوية بن أبي سفيان" هو أول من استغل المسكوكات في تحقيق الدعاية السياسية على عهد الدولة الأموية لتأكيد سلطة الدولة، وذلك عندما قام بضرب دنانير ذهبية عليها صورته وهو متقلداً سيفه^(١٤٤). كعلامة واضحة ورمز دعائي بارز يؤكد به سلطة الأمويين السياسية تلك السلطة التي قاومها العلويون والخوارج، إلا أنني أرى إن جاز لي الرأي أن معاوية كان من الذكاء الشديد الذي يمنعه من اتخاذ هذه الخطوة في ذلك الوقت؛ لأن ضرب العملة باسمه في ذلك الوقت معناه إثارة النزاع بينه وبين الدولة البيزنطية، لأن الدولة الأموية في عهد معاوية لم تكن لها القدرة على ضرب السكة خشية اعتراض إمبراطور الدولة البيزنطية على ذلك، ولعدم الدخول معه في صدام لا يحمد عقباه خاصة وأن العلاقات السياسية بين معاوية والدولة البيزنطية تأرجحت بين المهادنة أثناء انشغال معاوية بالثورات الداخلية، وبين العداء الذي تعكسه معارك الفتوحات الإسلامية المستمرة^(١٤٥).

وربما يكون الاحتمال الأرجح هو أن تكون دنانير معاوية التي نقشها بصورته كانت تحمل أيضاً صورة الإمبراطور البيزنطي على الوجه الآخر، وهي سمة استمرت حيناً من الزمن، وهذا ما يتفق مع الظروف السياسية في هذه الفترة الحرجة التي انتزع فيها الأمويون السلطة، فقد كانوا في حاجة إلى التركيز على الأوضاع الداخلية، وكسب إجماع عام من فئات المجتمع يدعم هذه السلطة وهو ما يترتب عليه قوة وتماسك الدولة، وقد يساعدها هذا فيما بعد على مجابهة الأخطار الخارجية ولاسيما الدولة البيزنطية وهناك من المؤرخين من يرى أيضاً أن "معاوية بن أبي سفيان" هو أول من استخدم الإدارة والدعاية وعمل على توظيفها للأغراض السياسية، عندما عرض قميص عثمان في مسجد دمشق ملوثاً بدمه، وعرض أصابع زوجته "ثائلة"

وقد قطعت وهي تحاول أن ترد الثوار عنه، وذلك إمعاناً منه في إثارة الناس وتماديًا في دعواه للمطالبة بدم عثمان وتبرير الخروج على خليفة المسلمين "على بن أبي طالب" (١٤٦).

كما استخدم الرموز الدعائية مرة أخرى عندما لاح الانتصار لجيش "علي بن أبي طالب" على جنده في معركة "صفين" حيث طلب "معاوية" من الجنود رفع المصاحف على أسنة الرماح، ونادى مناديهم "الله الله في الحرب الله الله في الإسلام، كاتب الله بيننا وبينكم فائخدع بعض الكبار من أصحاب "علي" ودعوا إلى الرضا بما يعرض أهل الشام ولكن "علي" أبيّ موضحاً لهم أنهم كائدون لا مخلصون، وأنهم قد تحايلوا لما أيقنوا الهزيمة، ولكن بناءً على إصرارهم عاد "علي" ورضخ لطلبهم، وبهذا الاستخدام المتقن لهذه الحيلة التي استخدم فيها القرآن كرمز نجاح معاوية في تحاشي هزيمة محققة كان يمكن أن تلحق به، ومن ناحية أخرى نجح في إيقاع الفرقة بين أتباع "علي" الذين عادوا وسخطوه على التحكيم. وكانوا قد وافقوا عليه من قبل بحجة أنه "لا حكم إلا لله" (١٤٧).

مدارة ودلالات سياسية أخرى

نذكر جميعاً كيف استغل "عبد الملك بن مروان" الموقف السلبي "لابن الزبير" في عدم التحول من الدفاع إلى الهجوم وبقائه جامداً على ما اختطه لنفسه بالاعتصام في المسجد الحرام وبقائه فيه، وبدلاً من أن يجعل نفسه سيد الموقف المسيّر للحوادث، جعل الحوادث تجرفه وتلقي به رويداً رويداً إلى مصيره المحتوم من الفشل والخزلان (١٤٨).

وقد نجح عبد الملك في استغلال هذا الموقف السلبي لابن الزبير فاكتفي بتقوية جنده على طول الطريق المؤدي إلى بادية الأردن مكوناً بذلك حزاماً دفاعياً في المسالك والممالك التي يمكن أن يستخدمها ابن الزبير في التقدم

ناحية مصر أو الشام^(١٤٩). وذلك من خلال القيام بإنشاء مجموعة من المنشآت المعمارية لمرابطة الجيوش في مواقعها. ومن هنا نستطيع أن نقول بكل صراحة إن ما شهده العصر الأموي على عهد "عبد الملك" من إصلاح للطرق وتقدم للبريد كان أيضًا يمثل مداراه سياسية وراء المظاهر الحضارية خاصة إذا علمنا أن هذه الطرق كانت تمثل شرايين الحياة بالنسبة للدولة الأموية فهي تساعد على الاتصال السريع وتؤدي إلى ترابط أقاليم الدولة وسهولة الانتقال بين أرجائها لمعرفة أخبارها بعد ما مزقتها الحروب طويلاً ومن ناحية أخرى، ومما لا شك فيه أن ما شهده البريد من تقدم على عهد عبد الملك ما كان إلا لتسهيل الانتقال بين أقاليم الدولة، فلم يعد هذا النظام يعتمد على طريقة تبادل الخيل في محطات البريد لنقل الرسائل فقط بل أصبح نظامًا يستفاد منه في الحالات العسكرية والحربية، فقد كانت عربات البريد تستخدم أحيانًا في نقل المعدات والقوات العسكرية على وجه السرعة، حيث كانت تستطيع أن تحمل ما بين خمسين ومائة رجل في الرحلة الواحدة^(١٥٠).

وقد واكب الاهتمام بتطوير البريد الاهتمام بالطرق، وكان للخليفة عبد الملك دوره البارز في هذا المجال، وأن ما عثر عليه في فلسطين من أحجار للمسافات بالميل تحمل اسمه يؤكد ذلك، وهذه الأحجار يبدو أنها سلسلة من علامات المسافات التي وضعت على الطريق الواصل بين دمشق وباقي أقاليم الدولة، كما عثر علماء الآثار في منطقة الجليل سنة ١٩٦١م على حجر تذكاري يحمل أسم الخليفة "عبد الملك"، ويفيد النص المنقوش على الحجر بأن الخليفة أمر "يحيى ابن الحكم" بضرورة تسهيل وتمهيد منطقة وعرة كانت تعترض مسار الجيوش الواصلة من دمشق إلى شبه الجزيرة جنوبًا ومؤرخ بسنة ٧٣هـ، ٦٩٢م^(١٥١).

كما أن حدود المسجد الحرام والمشاعر المقدسة والأميال التي تحدد المسافة بينهما، وجد أنها أنشئت على عهد عبد الملك بن مروان، ومن الطبيعي أن يكون إنشاؤها قد تم بعد التغلب على حركة "ابن الزبير" ويواكب هذا الاهتمام من جانب الخليفة عبد الملك بالبريد والطرق سياساته الدعائية الأخرى كضرب السكة وإنشاء قبة الصخرة، مما يشير إلى تكامل السياسات الدعائية المختلفة التي نفذها الخليفة "عبد الملك" لتكون مداراة سياسية متكاملة الغرض منها التأكيد على سلطة الدولة التي تصل إلى أقصى الأطراف التي تنتهي إليها هذه الطرق، بما يترك أثراً حسناً في نفوس المسافرين عليها تجاه السلطة القائمة على رعاية هذه الطرق^(١٥٢). وإن كان المظهر الحضاري المتمثل في الاهتمام بالطرق والبريد والمسافات اختلف عن المظاهر الأخرى في السكة وقبة الصخرة، ذلك لأن المظهر الحضاري هنا عمل كإنذار سريع عن التهديدات والأخطار التي يمكن أن تقع من الخصوم، ومن هنا يمكن أن نطلق عليه مظهرًا حضاريًا تكتيكيًا أو استراتيجيًا لمنع التهديدات والأخطار التي يمكن أن تترتب على الهجوم المسلح.

وفي إطار المداراة السياسية وراء المظاهر الحضارية في عهد الخليفة عبد الملك تأتي سلسلة القصور الأموية في المنطقة الصحراوية ببادية الأردن، التي تمثل خط الدفاع الأمامي ضد هجمات الزبيريين فقد كان من الصعب التقدم للهجوم أو الدفاع عن هذه المنطقة من جانب الجيوش الأموية إلا في وجود هذه القصور التي عملت كقلاع لها وظائف دفاعية وهجومية في آن واحد^(١٥٣).

وإذا نظرنا إلى المظاهر الحضارية المتمثلة في القصور الأموية في منطقة بادية الأردن نجد أنها كانت على درجة كبيرة من التحصين خاصة إذا علمنا أن الدفاعات الطبيعية في هذه المنطقة قليلة وغير مؤثرة وقد استعاض

عبد الملك عن هذا الضعف الشديد بتوطين شيوخ القبائل في تلك القصور التي كانت تمثل مقاراً لهم ولزعمائهم وقد أوكل لهم مهمة حراسة الحدود الشرقية لبلاد الشام^(١٥٤). وذلك لتحقيق أهداف سياسية، كما أن هذه القصور في وقت من الأوقات كانت ترابط فيها الجيوش الأموية خاصة في الفترة من سنة ٦٦ إلى ٧٣هـ، وهي فترة الصراع مع الزبيريين، وقد ساعدت هذه القصور تسهيل مهمة الحجاج في مهاجمة ابن الزبير بمكة.

وعلى هذا فقد خدمت هذه القصور الأهداف السياسية والتحركات العسكرية لعبد الملك، وعلى الرغم من أنها كانت تمثل مظهرًا حضاريًا في الأصل إلا أنها دعمت رغبة الخلفاء الأمويين في التقرب من أهل البادية، ومشايخ القبائل العربية الذين ارتبطوا مع الخليفة بروابط العشيرة أو العادات أو المصالح وقد سعى عبد الملك عادة لكسب ودهم^(١٥٥).

ولا يمكن أن ننسى أبدًا موقف قبائل الأردن من تأييد الأمويين، وعدم التخلي عنهم في الوقت الذي بايعت فيه معظم الأقاليم "لابن الزبير" ومن المفترض أن تكون هناك مستوطنات سكنية في بادية الأردن قريبة إلى حد ما من مواضع هذه القصور، حيث إن مرابطة الجيوش أو القبائل في هذه المنطقة فترة طويلة كان في حاجة إلى مصادر كافية من الغذاء تطلب توفيرها إقامة تلك المستوطنات السكنية والزراعية التي أقامت القبائل في هذه المنطقة الحيوية والتي اخترقتها الطرق التي تصل بين الحجاز وشمال الجزيرة العربية، وبين بلاد الشام لاسيما العاصمة الأموية دمشق، ويتفق ذلك منطقيًا مع ارتباط توزيع القصور ببادية الأردن وسوريا بالطرق التي كانت تربط دمشق ببلاد الحجاز والتي بدأ الاهتمام بها منذ عهد الخلفاء الراشدين^(١٥٦).

واستمر على عهد الأمويين، ثم تجددت العناية بها في عهد الخليفة "عبد الملك بن مروان" ومن هنا تعكس المظاهر الحضارية على عهد عبد الملك بن مروان جانباً آخر من جوانب السياسة الأموية الحربية التي اهتمت بتأمين الطرق والمسافات في فترة الفتن والاضطرابات، وإعادة إصلاح ما تخرب منها كذلك اهتم عبد الملك بتحسين الثغور البرية التي تعرضت للتدمير من جراء الحروب وبني فيها منازل للجنود للمرابطة الدائمة فيها^(١٥٧). وتكشف هذه المظاهر الحضارية في عهد عبد الملك عن مدى اهتمامه بالأهداف السياسية والحربية في إطار المداراة والدعاية واستغلالهما استغلالاً واضحاً من أجل مصلحة دولته والتي لم تسلم منها حتى الكسوة والنسيج التي طبعت عليها رسوم الخلافة لتحقيق أهداف دعائية سياسية^(١٥٨).

وإذا كانت المظاهر الحضارية السابقة تعطي دلالات سياسية ودعائية من منظور إيجابي، فإن هناك من الأعمال ما يعكس مثل هذه الدلالات ولكن من منظور سلبي ولعل أبرز مثال على ذلك هو إهمال الأمويين المتعمد لخليج أمير المؤمنين، فهذا الخليج تم حفره في عهد الخليفة "عمر بن الخطاب" سنة ٢١هـ لتسهيل نقل المواد الغذائية من مصر إلى المدينة المنورة لاسيما بعد الشدة التي تعرضت لها المدينة سنة ١٨هـ^(١٥٩). واستمر هذا الخليج في أداء وظيفته في العصر الأموي زمن معاوية ويزيد، ثم انقطع بعد ذلك زمن خلافة عبد الملك بن مروان^(١٦٠).

ويرتبط هذا الانقطاع المقصود والإهمال المتعمد بأحداث الصراع السياسي بين عبد الملك وابن الزبير، في بلاد الحجاز، فقد كانت مصر تابعة للدولة الأموية ومن خلالها مارس الأمويين ضغوطاً اقتصادية على بلاد الحجاز والزبيريين، كان من نتائجها إهمال خليج أمير المؤمنين وتوقفه عن العمل طوال تلك الفترة التي امتد فيها الصراع.

ومن ناحية أخرى نفذ عبد الملك مظهرًا حضاريًا آخر كان له أجلُ النتائج من حيث صيانة أحد المقومات الكبرى للأمة، وحفظ كيائها القومي وهو خاص باللغة العربية واللغة بلا جدال من أكبر مقومات وأهم أركان القومية، فقد بقيت دواوين الدولة وأهمها الخراج وهي التي تشرف على الشؤون المالية، بقيت هذه الدواوين تستعمل اللغات الأجنبية، كما كانت حالها في عهود الدولة السابقة قبل الإسلام فكانت لغة دواوين العراق هي الفارسية، ولغتها في الشام الرومية، وفي مصر اليونانية أو القبطية، واستمرت الحال على ذلك منذ بدء الإسلام حتى عهد عبد الملك، فكانت النتيجة احتفاظ الدولة بطوائف من الموظفين الذين يعتبرون أجنبيًا، أي من غير العرب المسلمين، وكان من نتائج بقاء تلك اللغات الحية وكأنها معترف بها لغات رسمية إضعاف اللغة العربية، نتيجة لإقبال الناس على اللغات الأجنبية والتعامل بها وإتقانها لحاجة الدولة إليها، وكونها طريقًا لتولي الوظائف العليا، ولو استمرت الحال كذلك لبقيت هذه اللغات مهيمنة ومنافسة للغة العربية، ولما أمكن للغة العربية أن تتغلب عليها، بل لأدي إلى انتشار هذه اللغات الأجنبية مما يمثل خطرًا داهمًا يهدد اللغة العربية وبالتالي كان يضعف من تكوين الدولة القومي.

وقد شغل "عبد الملك" بتعارض هذا الوضع مع شخصية الدولة التي يرأسها وجاهد من أجل توحيدها، وعمل على تثبيت دعائم حكمه فيها ولم يكن يتأنى ذلك إلا من خلال الإشراف الكامل على الإدارة المحلية لكي تعمل بكفاءة ودقة وانتظام وولاء، ومن الناحية العملية شعر عبد الملك أن هذا لا يمكن أن يتم أو يكون ما دام هناك موظفون أجانب غرباء عن الدولة، وما دامت هناك اللغات التي يستعملونها في الأعمال والمكاتبات الرسمية هي لغات أجنبية، لذلك قرر عبد الملك إزالة هذا الوضع الشاذ، وأصدر أوامره

بتحويل الدواوين إلى اللغة العربية فتكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة في جميع الدواوين^(١٦١). وبذلك أصبحت اللغة العربية هي لغة جميع الدواوين^(١٦٢).

وكانت كبرى نتائج ذلك إبطال تلك اللغات الأجنبية فتحقق النصر للغة العربية، وكان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الجاليات والأقاليم فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار العربية ولما كانت هي اللغة التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العليا فقد أصبحت لها المكانة الممتازة، وأقبل الموالي وغيرهم على تعلمها وإتقانها فتكونت في الدواوين طبقات من الموظفين المثقفين الذين حصلوا على قدر من الثقافة العربية ونبغوا في الكتابة والآداب العربية، وبهذا المظهر الحضاري حفظ عبد الملك لدولته أكبر مقوم لثقافتها القومية وأعلى عنصر تعتز به بعد دينها في تكوين شخصيتها ألا وهو اللغة العربية^(١٦٣).

وهكذا فقد انطوت سياسة التعريب التي تبناها عبد الملك على تحقيق أهداف مهمة فالى جانب نشر الإسلام واللغة العربية فقد تحقق الاستقلال الاقتصادي الكامل لدولته، ومن ناحية أخرى سائر أهل البلاد المفتوحة هذا الاتجاه السياسي طمعاً في شغل المناصب الإدارية وأثمر اختلاط العرب بالتزواج مع أهل البلاد المفتوحة جيلاً من المولدين عقيدته الإسلام ولغته العربية، فكان لهذا الجيل دور بارز في سرعة انتشار الإسلام واللغة العربية انتشاراً سريعاً بين أهالي البلاد المفتوحة واكبت سياسة التعريب وأكد نجاحها، هذا بالإضافة إلى نشوء مدارس علمية فقهية إسلامية في مدن الأمصار الناشئة كالْبصرة والكوفة والفسطاط وغيرها والتي أسسها الصحابة والتابعون الذين انطلقوا مع الفتوحات، أو ممن تركوا المدينة المنورة بعد ذلك تحت

تأثير اضطهاد الأمويين كـبعض الأنصار الذين هاجروا وانساحوا في بلاد المغرب والأندلس^(١٦٤).

كانت أنظمة الإدارة المالية والعسكرية للولاة على عهد عبد الملك تتمتع بسلطات وصلاحيات واسعة تمكنها من أداء وظيفتها والمهام الموكولة إليها وهذا يعني تمتع الولاة بدرجة كبيرة من الاستقلال في اتخاذ القرارات ووضع السياسات التي يرونها مناسبة في تسيير أجهزتهم مع الالتزام بمبادئ الدولة وإطارها العام، ومن هنا عكست آثار الولاة جانباً من المداراة السياسية وراء المظاهر الحضارية على عهد عبد الملك أيضاً فلم تخل أعمالهم الحضارية من نزعات سياسية إن كانت فردية إلا أنها أكدت على الإطار العام لسياسة الدولة، وارتبط ذلك كله بأحداث العصر التي كان لها دورها في توجيه هذه السياسات فقد تكلمنا عن أحداث هذا العصر من الناحية التاريخية وما بها من أهوال من خلال أحد الولاة وهو الحجاج الذي تولى إدارة شؤون بلاد العراق في عهد الخليفة عبد الملك وما واجهه من مشكلات سببها له الخوارج وعلى رأسها ثورة "شبيب بن يزيد الشيباني"^(١٦٥). الذي تقدم بجنده نحو الكوفة بعد أن دحر جيش الحجاج، وقد أمعن في الانتقام والتحدي عندما قام بضرب باب القصر المقيم فيه الحجاج بعمود من حديد تركت أثراً بارزاً عليه^(١٦٦).

وأمام هذا الخطر الذي واجهه الحجاج والذي وصل إلى باب قصره في الكوفة وما نتج عنه من تدمير الكوفة والبصرة اتجه الحجاج بفكره إلى إنشاء مدينة واسط بعد موافقة الخليفة عبد الملك^(١٦٧).

وعلى هذا يمكن أن نقول إن بناء مدينة واسط واكب حركة التعمير والإنشاء التي غلبت على السياسة الأموية في ظل المداراة السياسية على عهد عبد الملك لأن البعد الاستراتيجي والسياسي كلاهما وجهان لعملة واحدة. وبالبحث عن العوامل التي حكمت اختيار موقع مدينة واسط نجد أن هذا

الاختيار حكمته عوامل استراتيجية انصبّت على اختيار موقع المدينة في مكان وسط بين البصرة والكوفة يمكن من خلاله السيطرة على كل منهما بسهولة، وقد أشار الحجاج إلى هذا المغزى الاستراتيجي عندما قال: "اتخذ مدينة بين المدينتين، يعني الكوفة والبصرة؛ تكون بالقرب منهما أخاف أن يحدث في أحد المدينتين حدث وأنا في المقر الآخر فمر بواسطة العقب فأعجبته فقال هذا وسط القصب" (١٦٨).

كما أن هناك بعداً استراتيجياً آخر جدير بالملاحظة كان له دوره أيضاً في اختيار موقع المدينة وهو صعوبة المرور من دجلة أو الفرات إلى المدينة إذا ما قطعت الجسور، وبذلك تهيأ للحجاج الفرصة للاستعداد والقضاء على الثورات وعزل المدن المحيطة من خلال واسط (١٦٩).

ومن ناحية أخرى كانت المدينة بمثابة قاعدة متقدمة للجيش ناحية المشرق، فتم تجهيز الجيش منها وتسييرها للفتح، ومن ناحية ثالثة وفرت المدينة الجديدة إمكانية عزل جند الشام عن أهل البصرة والكوفة في حال القيام بأي تمرد ضد الوالي (١٧٠).

ومن الناحية الاقتصادية توافرت للمدينة مميزات عدة متمثلة في موقعها وسط الأراضي الزراعية الخصبة التي تمد المدينة بما تحتاج إليه ويمكنها من الاعتماد على نفسها إذا ما تعرضت لخطر الحصار. وانعكست خبرة الحجاج بأهل العراق وما واجهه من أحداث القلاقل والفتن والحروب مع الخوارج وغيرهم على تخطيط واسط فحصنها بسور قوى وجعل قصره وسطها تنتهي إليه شوارع رئيسة أربعة عليها بوابات ضخمة، ونظم أسواقها ومساجدها تنظيمًا دقيقًا وإن كانت المصادر قد اختلفت في تحديد تاريخ بنائها إلا أنه من المؤكد أنها بنيت خلال الفترة من سنة ٨١هـ إلى سنة ٨٣هـ أي بعد انتهاء الحجاج من القضاء على الخوارج الأزارقة ومعظم الثورات القوية المناهضة

للحكم الأموي في عهد الخليفة عبد الملك، فتهيأت ظروف أنسب لإنشاء هذه المدينة التي لم تكن ظروف الحجاج تسمح بإنشائها قبل ذلك.

ويعكس أسلوب بناء قصر الحجاج بمدينة واسط دلالات سياسية مهمة حيث إنه بني لهذا القصر "قبة خضراء" كذلك التي كانت بدار معاوية التي عرفت بالخضراء نسبة على قبتها التي أخذت اللون الأخضر، حيث كان شعار الأمويين الخضرة^(١٧١).

وقد تفنن الحجاج في إنشاء قصره فبناه بناءً رائعاً يؤكد نزعة السياسية نحو التميز والتفوق على غيره ويمكن أن نربط هنا بين دار الإمارة بالبصرة التي أنشأها "زياد بن أبيه" وهدمها الحجاج لمحو ذكرى صاحبها، وبين الإمعان في إنشاء هذا القصر بواسط، ويؤكد ذلك على دلالات سياسية هامة قصد الحجاج من ورائها بيان قدرة الدولة على الإنشاء تلك القدرة التي تفوق ما سبقها، وتجسد الرمز هنا في إنشاء قبة للقصر يراها القادم إلى المدينة من بعد، وجعلها أيضاً خضراء في رمزية أموية خالصة^(١٧٢).

وهكذا ارتبط إنشاء الحجاج لواسط بظروف المناخ السياسي الذي عايشه قبل إنشائها وأثنائه كما عكست عمارتها ملامح الشخصية السياسية التي ميزت عصر "عبد الملك" عن غيره وفي إطار الإدارة السياسية وراء المظاهر الحضارية من منظور اقتصادي ركز "عبد الملك بن مروان" اهتمامه على مصر باعتبارها الإقليم الرئيس بعد بلاد الشام الذي يخضع للنفوذ الأموي ولأهمية مواردها الاقتصادية، لذلك فقد أقر أخاه "عبد العزيز" على ولايتها، وكان عبد العزيز قد تولاهما من قبل مروان في رجب سنة ٦٥هـ^(١٧٣).

ولما تولى عبد الملك وجهه التوجيه السياسي الذي يتفق مع الإدارة السياسية حيث قال له: "أبسط بشرك وأكن كنفك وانظر حاجبك فليكن من

خير أهلك فإنه وجهك ولسانك" ويدخل هذا التوجه في إطار سياسة عبد الملك العامة التي تؤكد على إظهار عظمة الدولة الأموية وسيادتها وفي إطار الدعاية السياسية ومن خلال المنشآت المعمارية أمر عبد الملك أخاه عبد العزيز "ببنيان الدار المذهبة" في سنة سبع وستين هجرية، وتقع غربي المسجد الجامع^(١٧٤).

وواكب هذا المظهر مظاهر الترف والكرم المعروفة عند الأمويين والتي أبداهها عبد العزيز حيث تذكر المصادر أنه كان له "ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر"^(١٧٥).

وفي سنة ٧٧ هـ أمر عبد العزيز بالزيادة في المسجد الجامع بمصر فهدمه كله وزاد فيه في جوانبه كلها^(١٧٦). وأكرم أهله ومن حوله وأغدق عليهم الأموال^(١٧٧). ويتفق هذا الكرم الذي يلاحق الإنشاء المعماري مع سياسة عبد الملك وتوجيهاته إلى ولاته والتي انطوت على عامل التأثير الدعائي ومن هذه الأمثلة المحددة لسياسات بعض الولاة يتضح إلى أي مدى كانت سياسة "عبد الملك" وسياسة ولاته تسير في اتجاه واحد من منطلق واحد أكدته جميع المظاهر الحضارية الباقية والتي عرضنا لبعضها.

وليس غريباً أن تتأثر المظاهر الحضارية بالناحية الجغرافية على عهد "عبد الملك بن مروان" أيضاً فلما كانت بلاد الشام والعراق ومصر وشبه الجزيرة العربية تتشابه جغرافياً فيما بينها من حيث إن فيها مساحات شاسعة من الصحارى والمناطق التي يشكل فيها الجفاف بعض المشاكل للسكان، لذلك لم يكن غريباً أن نرى المظاهر الحضارية تهتم اهتماماً كبيراً بحل مشاكل نقص المياه عند تأسيسهم لمدنهم، فنراهم يكثرُونَ مثلاً من بناء الأسبلة العامة، ومن ناحية أخرى، كانت لها أيضاً دور في الحياة الاجتماعية من

حيث تفسير اهتمام الأمراء وعلّيه القوم من المسلمين ببناء أحواض وناפורات مياه في أفنية قصورهم، كذلك نرى هنا أيضًا أثرًا للعامل الجغرافي والبيئي في تحقيق هذه الوحدة التعبيرية للمظاهر الحضارية، بمعنى أن البيئة هي التي وجهت المشروعات الإنشائية والزراعية على عهد عبد الملك خاصة في مشكلة نقص المياه ومحاولة توفيرها، ومن أمثلة ذلك شبكة الري التي كشف عنها العالم الفرنسي "جان سوفاجيه" التي أنشأها الأمويون مستغلين المياه الجوفية بقصد توفير الماء اللازم لزراعة مساحات إضافية من الأرض في وادي نهر الأردن الذي يقع في مستوى أدنى من مستوى المكان الذي به نبع الماء، وكذلك كان الغرض من إنشاء هذه الشبكة تأمين وصول المياه للقصور التي تم بناؤها في صحراء وادي الأردن^(١٧٨).

وفي نهاية المطاف وقبل أن نسدل الستار على آخر صفحة من صفحات هذا البحث الذي يدور محوره جول المداراة السياسية وراء المظاهر الحضارية، ينبغي أن نذكر أن المظاهر الحضارية مهما كانت دوافعها وأسبابها ستظل شواهد ثابتة تدل على فكرة عالمية الحضارة الإسلامية، وخصوصيتها في الوقت نفسه، وهذا في واقع الأمر صحيح، فمهما اختلفت هذه المظاهر من منطقة إلى منطقة أو من عصر إلى عصر، فهي تعكس بين ربوعها النشاط الحضاري، سواء كان للأمويين أو الزبيريين أو الخوارج وغيرهم، ومهما اختلفت من ميادين الحرب إلى مواطن الطرب واللهو، فهي واحدة في تجانسها صبغت ودمجت في روح الإسلام فكانت الوحدة التعبيرية فيها بمثابة القاسم المشترك الأعظم.

الخاتمة ونتائج البحث

إذا كان "وليم ولشن" الأستاذ الأمريكي في تعريفه للسياسة قال "هي فاعلية استخدام الموارد الطبيعية وغير الطبيعية والتأثير والقيادة واتخاذ القرارات

في المؤسسات الحكومية والمنظمات والمؤسسات الأخرى" فإن عبد الملك بن مروان الذي أكد على أسلوب الدعاية والتأثير بالقيادة قد سبق ولشئ بأكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان^(١٧٩). وهذا ما ركزت عليه في هذا البحث وحاولت إيضاحه ومن خلال هذا البحث أيضاً حاولت الإجابة على سؤال هام، وهو كيف يمكن استخدام المنجزات الحضارية المادية كوسيلة من وسائل الدعاية السياسية؟! وكيف يمكن استخدام الرمز الدعائي كأسلوب من أساليبها؟!

كل هذا تجسد في عصر "عبد الملك بن مروان" ذلك العصر الذي تضاربت فيه روايات واتجاهات المؤرخين الذين سجلوا لهذا العصر مع اختلاف انتماءاتهم التي انعكست على كتاباتهم.

ومن خلال هذه الدراسة توصلت إلى عدة نتائج هامة يمكن أن نوجزها فيما يلي:

١- عملت المظاهر الحضارية وكأنها متحدث رسمي باسم الحكومة القائمة في دولة ما، لذلك فقد عكست هذه المظاهر كل ما يتصل بالسياسات العامة سواء كانت للشيعية أو للخوارج أو للزبيريين وأهمهم على الإطلاق الأمويين، ولم لا والمظهر الحضاري، كما بينا، يتميز بالاستمرارية والدوام فهو من أهم العوامل المؤثرة في السياسة العامة للدولة ومن هنا فقد كشفت الدراسة عن الأساليب التي اتخذها الأمويون وخصومهم في سبيل تحقيق الأهداف السياسية وكيف كانت الدعاية بالأعمال الرمزية من أهم هذه الأساليب.

٢- أثبتت الدراسة أن المظاهر الحضارية تترك أثراً نفسياً واجتماعياً على الأفراد والمم والشعوب، هذا الأثر غالباً ما يكون إيجابي للمؤيدين، وفي نفس الوقت نتائجه سلبية بالنسبة للخصوم السياسيين إلا إذا قاموا هم

الآخرون بمظهر حضاري آخر مختلف يتحقق من خلاله الشعور
بالمساواة بين الخصمان المتنازعين، بما يتيح لكل واحد منهما فرصة
متساوية مع الآخر، ولذلك كان المظهر الحضاري يتميز بالقدرة على
التقصص الوجداني الذي يمكن أن يخدع الأفراد والجماعات.

٣- وضحت الدراسة أن المظاهر الحضارية لا يمكن أن تكون محايدة في
عرضها مهما حاولت إضفاء ذلك لأنها تقوم على الإدارة التي تخدع
الرأي العام لهذا كانت معظم المظاهر الحضارية تركز على اتجاهات
الناس واهتماماتهم وقيمهم وعاداتهم، لأن هذا المظهر أو ذاك هو في
النهاية يخدم الحاكم من الدرجة الأولى.

٤- إن المظاهر الحضارية مهما كانت دوافعها وأسبابها ومهما اختلفت من
منطقة إلى أخرى، فهي في النهاية ستظل شواهد ثابتة تدل على فكرة
عالمية الحضارة الإسلامية وخصوصيتها، لأنها صنعت وصبغت ودمجت
في روح الإسلام.

الهوامش

- (١) ابن ثغري بردي (جمال الدين يوسف) ت ٥٧٤هـ / ١٤٦٩م، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب مصر ١٩٣٩م، ج١، ص٣٣.
- (٢) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) ت ٣٢٨هـ، العقد الفريد، طبعة القاهرة، ١٩٤٠م، ج٤، ص٤٠١.
- (٣) المسعودي (أبو الحسن علي) ت ٣٤٥هـ، التنبيه والإشراف، ط، بيروت، دار صعب، ص٢٧٣.
- (٤) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩١١هـ، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نسخة مصورة من طبعة القاهرة سنة ١٣٧١هـ، ص٢٢١.
- (٥) ابن رضوان (أبي القاسم المالقي) ت ٧٨٣هـ، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق سامي النشار، ط. دار الثقافة ١٩٨٤م، ص١٦٢.
- (٦) سعد أبو دية، التطور التاريخي لمعنى السياسة بين عبد الملك بن مروان وبين ولیم ولشن الأستاذ الأمريكي، بحث منشور بمجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، العراق، العدد ٣٣، سنة ١٩٨٧م، ص١٩٢-١٩٣-١٩٥.
- (٧) عن سيرة "عبد الله بن الزبير" راجع: الذهبي (الحافظ لذهبي) ت ٧٨٤هـ / ١٣٤٨م، دول الإسلام، الطبعة الثانية، حيدر آباد سنة ١٣٦٥هـ، ج١، ص٣٩، وهناك طبعة أخرى تحقيق شلتوت ابن الأثير (عز الدين محمد بن عبد الكريم) ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م. أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط. مصر ١٢٨٤هـ ج٣، ص١٩٦ وما بعدها. Die familie el -Zubeir. Gottingen. 1878. P.28.
- (٨) خليفة بن خياط، تاريخ تحقيق مصطفى نجيب فواز وحكمت فواز، در الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥، ص١٣٣. وراجع أيضًا، الإمامة والسياسة، لمؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري، مؤسسة ناصر، بيروت ١٩٨٠، ج١، ص٢٤٢.
- (٩) عن تاريخ الخوارج راجع: البغدادي، الفرق بين الفرق، علق عليه محمد بدر، مصر. ١٣٢٨هـ، ص٤٦١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تصحيح عبد الوهاب النجار، ط. مصر ١٣٤٨هـ، ج٣، ص٢٥٥، ١٦٩. محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري. الطبعة الثانية.

١٩٨٦م، ١٥ وما بعدها. صالح حسين ناصر السادة، الخوارج في المشرق الإسلامي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة بآداب عين شمس، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

(١٠) عن تاريخ الشيعة خلال تلك الحقبة راجع: الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ط. القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٢٨٢-٢٨٣-٢٩٢-٢٨٦. النوبختي: فرق الشيعة، تحقيق محمد صادق، ط. النجف ١٣٥٥هـ، ١٩٣٦م، ص ٢٦-٢٧.

(١١) سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي، من سادات التابعين فقهاً وودعاً وعبادة وفضلاً وعلماً، مات سنة ٩٣هـ عن سيرته راجع، أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠ ص ٥٧-٥٨.

(١٢) أبو العرب محمد بن أحمد التميمي، المحسن، تحقيق وهيب الجبوري، ط ١، دار العرب الإسلامي، ١٩٨٣، ص ٢٩٢.

(١٣) أبو العرب التميمي، المحسن، ص ٢٩٢، ٣٩٢.

(١٤) حديث بصحيح مسلم، وراجع، الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ٨٨.

(١٥) إجلال خليفة، الوسائل الصحفية واتجاهات المجتمع الإسلامي المعاصر، ط. القاهرة. مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م، ص ٢٢.

(١٦) ابن الأزرق (أبو عبد الله محمد الأندلسي) ت ٨٩٦هـ، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد عبد الكريم، ط. تونس الدار العربية للكتاب، ١٩٧٧م، ج ١، ص ٢٢٣.

(١٧) ابن الأزرق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٣.

(١٨) راجع، الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٦٠. راجع أيضاً، ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ١٣١.

(١٩) ياقوت الحموي (شهاب الدين بن أبي عبد الله) ت ٦٧٦هـ/ ١٢٢٨م، معجم البلدان، تحقيق أمين الخانجي، ط. القاهرة ١٩٢٣م، ج ١، ص ٣٨٠.

(٢٠) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٤، ص ٩، ١٠، ١١.

(٢١) عن فاجعة مقتل الحسين راجع: أبو مخنف، في مقتل الحسين عليه السلام، ورسالة أخذ محمد الشيرازي. طبعة بمباي ١٣٦١هـ. ص ٦ وما بعدها وعن سيرته رضى الله عنه راجع: ابن الأثير، أمد الغاية، ج ٢، ص ١٨. الذهبي. سير أعلام النبلاء، تحقيق المنجد وغيره، ط. القاهرة، ج ٣، ص ١٨٨.

(٢٢) عن ثورة المختار راجع: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط. القاهرة ١٩٦٤، ج٥، ص ١٧٠، ٢١٤، ٢٢١. ابن الأثير، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٣٤، ٣٣٥. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢، ص ٢٢.

(٢٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٤٧، ٣٦٤، ٣٧٩، ٣٨١.

(٢٤) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٨٦ وما بعدها.

(٢٥) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المطبعة الحسينية، القاهرة، ج٧، ص ١٩، ٢٠، ١٠٨. بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ط. بيروت ١٩٤٨م، ج٢،

(٢٦) راجع، البغدادى، الفرق بين الفرق، ضبطه وعلق عليه محمد بدر، ط. القاهرة، ١٣٢٨هـ/١٩١٠م، ص ٥٦، ٦١. فلهوزن، الخوارج والشيعة، ط. القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٢٧) عن موقف المختار من الحركة الزبيرية راجع: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المطبعة الحسينية، القاهرة، ج٤، ص ٣٦٤، وكذلك ج٧، ص ١٩-٢٠-١٠٨. ابن الأثير، الكامل، طبعة القاهرة ١٣٠٢هـ، ج٣، ص ٩٥ وكذلك ج٤، ص ٧٣. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ط. القاهرة ١٣٢٥هـ، ج٢، ص ٢٢. Ockly: The History of the Saracens, London 1847, p. 479.0

(٢٨) عن حروب عبد الملك في العراق راجع: ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، طبعة لندن، ١٩٠٥-١٩٢٨، ج٥، ص ١٦٨. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٥، ص ٢٤٢. ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص ١٠.

(٢٩) ولد الحجاج في خلافة معاوية سنة ٤٢هـ/٦٦٢م، في قبيلة ثقيف، وأبوه هو يوسف بن أبي عقيل، وكان الحجاج منذ صغره يحب العراك، وكان هو وأبوه يعلمان الأطفال بالطائف ولكنهما تركا الكلام ليأخذا السيف، فاشتركا في موقعة الحرة. لمزيد من التفاصيل عن سيرة الحجاج راجع: الأصفهاني، كتاب الأغاني، طبعة بولاق ١٢٨٥هـ، وطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٢٧، ج٧، ص ١٧١، ج١٦، ص ٤٢. ابن خلكان، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، طبعة بولاق، ١٢٧٥/١٨٥٩م، ج١، ص ١٧٣-١٧٧. المسعودي، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٨.

٣٠) عن إخماد فتنة ابن الأثير راجع: ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص٢٤. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص٦٤١.

٣١) ضياء الدين الرئيس، عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية، سلسلة أعلام العرب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، ص١٧١.

٣٢) تاريخ اليعقوبي، طبعة ليدن، ١٨٨٣م، جـ٢، ص٣١١.

٣٣) التاريخ المجموع، طبعة بيروت ١٩٠٩م، جـ٧، ص٣٩.

٣٤) البداية والنهاية جـ٨، ص٢٨.

٣٥) عفيف بهنس، الفن العربي الإسلامي في بداية تكوينه، ط. دمشق، دار الفكر، ١٩٨٣م، ص٥٦.

٣٦) - Gold Ziher: Muhammedanisch studien (Hall) 1890, p.35.

٣٧) - Wellhausen: The Arab Kingdom and its Fall, (Beirut), 1963, P. 214. وراجع أيضاً، عبد الأمير دكسن، الخلافة الأموية ٦٥-٦٦هـ / ٦٨٤-

٧٠٥م، ط. بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٣م، ص٣٩-٤٠.

٣٨) -Hitte: History of the Arabs (New York) 1964, P. 220.

٣٩) راجع تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٩١، ص٢٥٨، ٢٥٩، ٣٨٨.

٤٠) راجع، زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ص٣٧-٣٨.

٤١) أحمد فكري، قبة الصخرة، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد الأول، ١٩٨٠م، ص٢٠.

٤٢) نفسه.

٤٣) الطبري، المصدر السابق، طبعة دار الكتب العالمية، جـ٣، ص٥٠٨، ٥٠٩.

٤٤) أحمد عبد الله يوسف، بيت المقدس من العهد الراشدي حتى نهاية الدولة الأموية.

طبعة القدس، دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٢م، ص٧٨.

٤٥) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ط. مصر ١٣٥١هـ، ص٢٧٠ الطبري، المصدر السابق، جـ٣، ص٥٣١.

- (٤٦) من هذه المصادر على سبيل المثال: خليفة بن خياط، كتاب التاريخ. البلاذري، أنساب الأشراف، الجزء الأول تحقيق محمد حميد الله، القاهرة ١٩٥٩م، والجزء الرابع، طبعة القدس ١٩٣٨م، ١٩٧١م.
- (٤٧) شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، ت القرن ٤هـ / ١٠م، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن ١٩٠٦م، ص ٧٤، ٧٥.
- (٤٨) القلقشندي، ت ٨٢٠هـ، مآثر الأئمة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار فرج، بيروت، ط عالم الكتب، ج١، ص ١٢٩.
- (٤٩) نفسه.
- (٥٠) ذكر البعض أن أول من سن التعريف كان عبد الله بن عباس والي البصرة من قبل الخليفة علي بن أبي طالب سنة ٣٦هـ وأنكر عليه العلماء ذلك العمل، وهناك من قال أن عبد العزيز بن مروان هو أول من سن التعريف عندما كان واليًا على مصر في المدة من ٦٥ حتى ٨٦هـ. راجع، زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي حسن وآخرون، طبعة بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٠م، ص ٣٨، ٦٢.
- (٥١) سفر نامة، رحلة ناصر خسرو، ترجمة أحمد خالد، الرياض جامعة الملك سعود، ١٩٨٣م، ص ٥٢. وهناك ترجمة أخرى ليحي الخشاب، طبعة القاهرة، ١٩٤٥م.
- (٥٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، طبعة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٤٠م، ج٢، ص ٣٥٠. وراجع أيضًا، النويري، ت ٧٣٢هـ، نهاية الأدب في فنون الأدب، ط. القاهرة، ١٩٢٣م، ج٤، ص ١١٥.
- (٥٣) أحمد فكري، قبة الصخرة، ص ١٧، ٢٠.
- (٥٤) نفسه.
- (٥٥) عباس بدر، قبة الصخرة، مقال في مجلة دراسات في الآثار الإسلامية، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٧٩م، ص ٨٧-٩٠.
- (٥٦) أحمد فكري، المرجع السابق، ص ٢٠.
- (٥٧) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٦م، ج٢، ص ٢٣.

- ٥٨) ابن سعد، ت ٢٣٠هـ، كتاب الطبقات، ط ليدن ١٩٠٥م، ج ٥، ص ١٦٦-١٦٧.
- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط ليدن ١٨٨١م، ج ٢، ص ٤١٠-٤١٢.
- ٥٩) خليفة بن خياط، كتاب التاريخ، القاهرة ١٩٦٨م، ج ١، ص ٣٢٩.
- ٦٠) عن هذه الأحداث راجع، الأزرقى، أخبار مكة شرفها الله، وما جاء فيها من الآثار، تحقيق وستن قلد، ط، ١٨٥٨هـ، ص ١٢٧، ١٣٩، ١٥٠.
- ٦١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، (لولا قومك حديثو عهد بكفر لهدمت الكعبة وألزمته بالأرض وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً ولزدت ست أنزع من الحجر في البيت، فإن قریشاً استقصرت ذلك لما بنت البيت) حديث صحيح رواية عائشة رضي الله عنها.
- ٦٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط. بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٥م، ج ١، ص ٢٤٥.
- ٦٣) محمد بن سعد، كتاب الطبقات، ج ٥، ص ١٦٧.
- ٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ((تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا)) مسند أحمد، ج ٣، ص ٥١ وعن فضائل المسجد الأقصى، راجع أتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق الدكتور/ أحمد رمضان أحمد، القسم الأول، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ص ٩٩.
- ٦٥) راجع، ابن تيمية، تقى الدين أبو العباس أحمد، ت ٧٥٨هـ، اقتناء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، مطابع المجد التجارية، ص ٤٣٥.
- ٦٦) محمد الطيب النجار، الدولة الأموية بين عوامل البناء ومعاول الهدم، طبعة القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٧٧م، ص ١٧.
- ٦٧) غفيف بهنس، الفن الإسلامي، ص ٦٤.
- ٦٨) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٤٥.
- ٦٩) دكسن، الخلافة الأموية، ص ٩٢، ١٠١، ١٠٢.
- ٧٠) راجع، الطبري، ج ٣، ص ٤٧٦. ابن الأثير، ج ٤، ص ٢١٢.
- ٧١) الأصفهاني، كتاب الأغاني، ط بولاق، القاهرة ١٢٨٥هـ. ج ٥، ص ١٣٦.
- ٧٢) دكسن، الخلافة الأموية، ص ١٠٣، ١٠٤.

- (٧٣) الأخشبان، هما جبلا أبي قبيس وقيقعان. راجع، أحمد بن محمد الأسدي الملاكي، أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، تحقيق وتعليق الحافظ غلام مصطفى، ط الهند، دار البحوث الإسلامية، الجامعة السلفية ١٩٧٦م، ص ١٠١.
- (٧٤) مروج الذهب، جـ ٣، ص ١٩.
- (٧٥) تاريخ يعقوبي، جـ ٢، ص ١٢٤.
- (٧٦) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط. القاهرة ١٣١٧هـ، ص ١٠٢.
- (٧٧) تاريخ بن عساكر، جـ ٤، ص ٣٧٣.
- (٧٨) تاريخ الرسل والملوك، جـ ٤، ص ٣٨٣.
- (٧٩) أنساب الأشراف، ط، ١٩٣٦م، جـ ٤، ص ٥٣.
- (٨٠) الكامل، جـ ٤، ص ٥٢.
- (٨١) البداية والنهاية، جـ ٨، ص ١٢٥.
- (٨٢) مسالك الأبصار، تعليق حسن حسني عبد الوهاب، جـ ١، ص ٩٥.
- (٨٣) العمري، المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٥، ٢٦.
- (٨٤) رجع نص الحديث في الهامش رقم (٦٤) بالبحث.
- (٨٥) أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرق، أخبار مكة، بيروت، ١٩٦٤م، ص ١٤٤.
- (٨٦) نفسه. راجع أيضا، الماوردي (أبو الحسن علي محمد بن حبيب) ت ٤٥٠هـ، الأحكام السلطانية، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠م، ص ١٦١.
- (٨٧) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٣٩.
- (٨٨) السيوطي، المصدر السابق، ص ٢١٢.
- (٨٩) دكسن، المرجع السابق، ص ٣٧، ٣٨.
- (٩٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة، ١٩٦٧م، جـ ٥، ص ٤٥٤.
- (٩١) تاريخ الرسل والملوك، جـ ٣، ص ٥٣٠.
- (٩٢) الكامل، جـ ٤، ص ٢٨٤.
- (٩٣) أنساب الأشراف، القدس ١٩٣٦م، جـ ٥، ص ٣٥٧.
- (٩٤) نفسه.
- (٩٥) دكسن، الخلافة الأموية، ص ٣٧، ٣٨.
- (٩٦) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط لندن ١٩٠٦م، ص ٧٤، ٧٥.

- (٩٧) معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٨٤م، ج٤، ص٤٤٦.
- (٩٨) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٦، ٢٧. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٤، ص٤٦٧. دكسن، المرجع السابق، ص٣٩.
- (٩٩) أبي عبيدة معمر بن المثنى، ت ٢٠٩هـ، نقائض جرير والفرزدق، ط. ليدن ١٩٠٥، ١٩٠٦م، ج١، ص٤٨٦٥.
- (١٠٠) يقصد بلفظ السكة في البحث النقود التي تم ضربها أو تداولها خلال هذه الفترة، وذلك لأن لفظ السكة قد ورد في بعض المراجع العربية معبراً عن عدة معاني غير النقود منها النقوش المختلفة ومنها قوالب السك التي تضرب بها العملة. المقريزي، شذور العقود في ذكر النقود، طبعة النجف، ١٩٦٧م، ص٦٦، ٦٧.
- (١٠١) مصطفى كامل السيد، المديونية والنظم السياسية، مجلة السياسة الدولية، عدد ٨٦، أكتوبر ١٩٨٦م، ص ١١ وما بعدها.
- (١٠٢) نفسه.
- (١٠٣) نادية رمسيس فرج، الآثار الاجتماعية للمديونية الخارجية للدول النامية، مجلة السياسة الدولية، عدد ٨٦، أكتوبر ١٩٨٦م، ص ١٢٦.
- (١٠٤) عبد الرحمن فهمي. إضافات جديدة في مسكوكات الفاطميين، مجلة المجمع العلمي المصري، عدد ٥٢ سنة ١٩٧٠م، ١٩٧١م، ص ١٥.
- (١٠٥) نادية رمسيس، المرجع السابق، ١٢٧ وما بعدها.
- (١٠٦) راجع، عبد العزيز حميد صالح، النقود وثائق تاريخية، مجلة المنهل، العدد السنوي المخصصون عن الآثار والآثار، عدد رقم ٤٥٤، المجلد ٤٨، جدة، مايو ١٩٨٧م، ص ٣٧١.
- (١٠٧) انتساس الكرملى. النقود العربية وعلم النميات العربية، القاهرة ١٩٣٦م، ص ٣١، ٣٢.
- (١٠٨) عبد الرحمن فهمي، موسوعة النقود العربية وفجر السكة العربية، القاهرة، دار الكتب ١٩٦٥م، ص ٣٦.
- (١٠٩) انتساس الكرملى. المرجع السابق. ٣١، ٣٢.
- (١١٠) المسعودي، التتبيه والأشراف، لبنان. دار صعب. ص ٢٦٦.
- (١١١) السيوطي. المحرر السابق. ص ٢١٢.

- (١١٢) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، ج٢، ص ١٦٤، ١٦٥.
- (١١٣) عبد الرحمن فهمي، موسوعة النقود، ص ٣٩٠.
- (١١٤) المقدمة، ط. القاهرة، المطبعة البهية بالأزهر، ص ١٨٣.
- (١١٥) ابن الأزرقي، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، ص ٢٦٣.
- (١١٦) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج١، ص ٥٣٦-٥٣٧.
- (١١٧) البيهقي، المحاسن والمساوي، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، ١٩٦١م، ص ٢٣٤.
- (١١٨) حسان علي، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، بيروت، الكتاب اللبناني ١٩٦٨م، وهناك طبعة بالقاهرة، دار الكتاب المصري ١٩٨٧م، ص ٤٤.
- (١١٩) وداد القزاز، الدراهم الإسلامية الساسانية للحجاج في المتحف العراقي، مجلة المسكوكات إدارة الآثار، بغداد، العدد ٤، ١٩٧٣م، ص ١٨.
- (١٢٠) انظر اللوحة رقم (١) في الهامش.
- (١٢١) كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٨٢م، ص ٤٨٧-٤٨٩.
- (١٢٢) نفسه.
- (١٢٣) السيوطي، المصدر السابق، ص ٢١٢، ٢١٩، ٢٢٠.
- (١٢٤) نفسه. راجع أيضًا، دكسن، المرجع السابق، ص ٢٣٩، ٢٤٠.
- (١٢٥) راجع، المسعودي، المصدر السابق، ص ٢٦٦. السيوطي، المصدر السابق، ص ٢١٢.
- (١٢٦) وداد القزاز، الشعار قوة يزيد بالله على درهم إسلامي مضروب على طراز ساساني في المتحف العراقي "مجلة المسكوكات" إدارة الآثار، بغداد، العدد (٧) ١٩٧٦م، ص ١٠٣.
- (١٢٧) نفسه.
- (١٢٨) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله وعمر الطباع، بيروت، دار النشر للجامعيين، ١٩٥٧م، ص ٤٥٣، ٤٥٤.

١٢٩) نفسه. وراجع أيضًا، سيدة إسماعيل كاشف، عبد العزيز بن مروان، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٦م، ص ٨٨.

١٣٠) قطري، هو اللقب الذي اشتهر به هذا القائد الذي يسمى "جعونة بن يزيد" وكنيته أبو محمد في السلم وأبو نعامة في الحرب. راجع، محمد أبو الفتوح العش، النقود العربية الإسلامية في متحف قطر، قطر وزارة الإعلام، ١٤٠٤هـ، ص ١٠١، ١٠٣.

١٣١) راجع، أحمد شلبي، الدولة الأموية والحركة الفكرية والثورية خلالها، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣م، ص ٢١٤، ٢١٧. راجع أيضًا، نايف محمد معروف، لخوارج في العصر الأموي، ط. بيروت دار الطليعة، ١٣٩٧هـ، ص ١٣٥، ١٤٥.

١٣٢) دكسن، الخلافة الأموية، ص ٢٨٥، ٢٨٩.

١٣٣) نفسه.

١٣٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط ليدن ١٨٧٦م، ج ٤، ص ١٦٧.

١٣٥) محمود أحمد أبو زهرة، المذاهب الإسلامية القاهرة، مكتبة الآداب، ص ١٢٣. راجع أيضًا وداد القرّاز، شعار جديد للخوارج على نقود عطية بن الأسود، مجلة المسكوكات إدارة الآثار. بغداد، عدد (١٠)، ١٩٨٠م، ص ١٧٤.

١٣٦) صالح بن قربة، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي حتى سقوط دولة بني حماد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٩٦.

١٣٧) مزيد من التفاصيل راجع: المسعودي، المصدر السابق. ص ٣١٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٨٤. وأيضًا الجزء السادس، ص ٣٥. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٣٣، ٣٣٤.

١٣٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٣٣، ٣٣٤.

١٣٩) المسعودي، المصدر السابق، ص ٣١٤. ابن كثير، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٤.

١٤٠) دكسن، الخلافة الأموية، ص ٢٥٩.

١٤١) جرت العادة أن يكشف المظلوم رأسه عند الدعاء إلى الله مستجيرًا طامعًا في نصرة الله، ولا تعرف لماذا وربما ارتبط ذلك بكشف الرأس في الحج والعمرة في

- المشاعر المقدسة، حيث تؤكد الشعائر على كشف الرأس أثناء تأدية العمرة أو فريضة الحج.
- (١٤٢) راجع، ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق حسن حبش، طبعة القاهرة، دار المعارف ١٩٦٧م، ص ١٠٨.
- (١٤٣) عبد الرحمن فهمي، موسوعة النقود، ص ٨٣.
- (١٤٤) راجع، عبد الرحمن فهمي، موسوعة النقود العربية، ص ٣٦. انستاس الكرولي، النقود العربية، ص ٣١، ٣٢. سمير شما، النقود الإسلامية التي ضربت في فلسطين، القاهرة، مطبعة الجمهورية ١٩٨٠م، ص ٣٧.
- (١٤٥) السيوطي، المرجع السابق، ص ١٩٦.
- (١٤٦) السيوطي، المرجع السابق، ص ٢٠٥.
- (١٤٧) محمد الطيب النجار، الدولة الأموية، بين عوامل البناء ومعاول الهدم، ص ١٧.
- (١٤٨) محمد الطيب النجار، المرجع السابق، ص ٧٠، ٧٢.
- (١٤٩) ابن عساكر (علي بن الحسن) ت ٥٧١هـ، تاريخ مدينة دمشق، دمشق ١٩٥٤م، جـ ٧، ص ٤٠، ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٨٤.
- (١٥٠) مولوي حسيني، الإدارة العربية، ترجمة إبراهيم العدوي، القاهرة، المطبعة النموذجية بالحلمية، ١٩٥٨م، ص ١٦٩.
- (١٥١) سعد بن عبد العزيز الراشد، منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة وصلتها ببلاد الشام في صدر الإسلام والخلافة الأموية اعتماداً على الاكتشافات الأثرية، بحيث منشور بالندوة الثانية من أعمال المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام بعنوان "بلاد الشام في صدر الإسلام"، الجامعة الأردنية، المجلد الثاني عمان، ١٩٨٧م.
- (١٥٢) محمد الخضري حسين، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية مع الدولة الأموية، القاهرة، دار الفكر العربي، جـ ١، لاص ١٨٤.
- (١٥٣) محمود إبراهيم حسين، نظرية جديدة في تفسير وظيفة القصور الصحراوية، مجلة العصور، دار المريخ، الرياض، مجلد (٢) عدد (٤) ١٩٨٧م، ص ٣٩٦.
- (١٥٤) نفسه.
- (١٥٥) عفيف بهنس، الفن الإسلامي. ص ٩٧.

١٥٦) عبد الهادي شعيرة، من تاريخ التحصينات العربية في القرن الأول والثاني للهجرة، دراسات في الآثار الإسلامية، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٧١م، ص ١٨، ١٣.

١٥٧) عبد الهادي شعيرة، المرجع السابق، ص ٢٢، ٢٣.

١٥٨) القلقشندي، وأثر الخلافة، ج ٢، ص ٢٣٠.

١٥٩) راجع، محمد المناوي، نهر النيل في المكتبة العربية، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م، ص ١٢٨.

١٦٠) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٧، ٢١٨.

١٦١) ضياء الدين الرئيس، المرجع السابق، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

١٦٢) عن معنى الدواوين، راجع، ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٢، ١٩٣.

١٦٣) ضياء الدين الرئيس، المرجع السابق، ص ٢٨٧.

وراجع أيضاً، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦٣ وما بعدها.

١٦٤) ابن رضوان، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص ١٦٢.

١٦٥) هو قائد ثورة صالح بن مرح التميمي، إحدى الثورات الخارجية التي جابهتها الدولة الأموية وقضت عليها في سنة ٧٧هـ. راجع، دكسن، المرجع السابق، ص ٢٩٠، ٢٩٤.

١٦٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢٨.

١٦٧) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

وراجع أيضاً، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٥.

١٦٨) بحشل، (أسلم بن سهل الرزاز الواسطي) ت ٢٩٢هـ، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، ط ١ القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٦م، ص ١٠.

١٦٩) ابن رسته، (أبو علي أحمد بن عمر) ت ٢٩٠هـ، الأعلام النفسية، طبعة ليدن ١٨٩١م، ص ١٨٧.

١٧٠) راجع، مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، العراق، دار الرشيد، ١٩٧٢م، ص ١١٠، ١٢٠.

١٧١) القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٥.

- (١٧٢) يلاحظ أن اللون الأخضر غلب قبة الصخرة أيضاً، راجع، حسن الباشا، التصوير الإسلامي في العصور الوسطى، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٥٩م، ص ٢٦.
- (١٧٣) الكندي، (أبو عمر محمد بن يوسف) ت ٣٥٠هـ، تاريخ ولاية مصر ويليها كتاب تسمية قضائتها، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٧م، ص ٤٤.
- (١٧٤) نفسه.
- (١٧٥) الكندي، المصدر السابق، ص ٤٦.
- (١٧٦) نفسه.
- (١٧٧) يوسف أحمد، جامع سيدنا عمرو بن العاص، مصر، ١٩١٧م، ص ٢٠.
- (١٧٨) صلاح الدين سيد البحيري، عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها في الفنون، حوليات كلية الآداب، الحولية الثالثة، الرسالة الثانية عشر، لسنة ١٩٨٢م — ١٤٠٢هـ.
- (١٧٩) راجع، سعد أبو دية، المرجع السابق، ص ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥.